محاضرات إسلامية



سبيل
الدَّعْوَة الإسلاميَّة

الدكتور
محمَّد أمين المصري



طبع باذن ورثة المؤلف

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

محاضرات إسلامية

العبادة لله وحده

الأخوة في الله

عدم موالاة غير المؤمنين

المسؤولية

تبليغ الدعوة

الاعتزاز بالإسلام

حماية الدعوة

قلة تنفيذ الموقف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :

فهذه هي السلسلة الثانية من دروس ومحاضرات فضيلة الدكتور محمد امين المصري ــ رحمه الله ــ وكنا في السلسلة الأولى قد قدمنا نبذة عن حياته ونضيف هنا أن الشيخ ــ رحمه الله ــ كان من المعاصرين القلائل الذين جمعوا بين الاختصاص بالحديث الشريف والدراسات التربوية الاجتماعية عند الغرب ؛ ومع هذا العلم جمع العمل، فقد زاول الدعوة إلى الله حتى آخر لحظة من حياته .

ونلخص الآن بعض ركائز افكاره التي تميز بها والتي كان يلح عليها كاسباب للنهوض بالمسلمين :

١ ــ التربية : تربية المنزل والمدرسة والمسجد ، ويؤكد على هذا الموضوع ولا يفتا يذكره ويتاسف على تربية المسلمين الآن ، ويقارن بينها وبين تربية الصحابة لاولادهم على الجهاد في سبيل الله .

٢ - إن اخطاراً داخلية اصابت المسلمين في نفوسهم وهي اشد فتكاً من الأخطار الخارجية ، فالرياح لاتلام إذا اقتلعت الشجرة النخرة . وإن هناك افكاراً (ميتة) تسبب العجز والخور وعدم الفهم ، وهذه لابد من بيانها وتجنبها .

٣ - ابتلاء كثير من المسلمين بالأخذ بالأحاديث الضعيفة والموضوعة التي تسبب فهماً غير صحيح ، وبالتالي تسبب سلوكاً منحرفاً . وهنا لابد من تنقية التراث وارجاع المسلمين إلى المعين الصافي .

٤ - الجهاد : وهذا الموضوع هو محور احاديث الشيخ - رحمه الله - لأن الجهاد هو الذي يربي الأمة ويمحصها وينقي صفوفها ، وهنا تظهر البطولة وتستخرج الطاقات . وهذا الجهاد وهذا الاصلاح من يبدأ به ؟ لابد من قلة مؤمنة تنقذ الموقف وتكون هي رائد الاصلاح .

هذا ملخص لما ذكرناه سابقاً في مقدمة الجزء الأول (المسؤولية) ... ونعود إلى موضوع التربية ، ما التربية التي يريد ؟ إنها التربية القرآنية ... العيش مع القرآن واجواء القرآن والتفاعل معه كما تفاعل معه الجيل الأول ، وكما وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ : « كان خلقه القرآن » .

وقد كشف المؤلف عن بعض جوانب هذه التربية عندما القى دروساً بعنوان (مبادىء اساسية في القرآن) وهي موضوع هذا

الكتاب ؛ يستنبط منها الجوانب التي اصبح المسلمون يمرون عليها وهم في غفلة عن معانيها . وهكذا يكون الاصلاح دائماً : يرفع الحجب ، ويزيل الرين الذي حصل للقلوب ليعود بالناس إلى الإسلام الذي نزل على محمد ﷺ .

وقد ابتدا هذه الدروس بموضوع العبودية لله ، إذ انها القضية الاولى التي يكررها القرآن الكريم حتى إذا رسخت في النفوس آتت ثمراتها المطلوبة ، لأن اعتراف الانسان أنه عبد لله خاضع له ويتلقى منه ، يزيل عنه صفة التكبر واستعباد اخيه الانسان . فالحكم لله وحده ، ودور المسلم هو دور المنفذ لإرادة الله وشرعه . وما صراع المؤمنين مع الكفار إلا لانقاذ الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وازاحة الطواغيت الذين يمثلهم فرعون (ما علمت لكم من إله غيري) (١) .

ومن ثمرات هذه العبودية : أن المسلمين كلهم اخوة يتناصرون ويتعاطفون ، تربطهم رابطة العقيدة ، وهي رابطة قوية دائمة، بينما غيرهم يرتبطون بروابط ضعيفة زائلة ، ومن نتائج هذه الاخوة : المجتمع الاسلامي المتكافل المتعاون على البر والتقوى ، وان الموالاة بين المؤمنين فقط ، فالمؤمن لايوالي اعداء الله بنصرة او محبة ، وهو مع هذا يقيم العدل فيهم .

---

(١) القصص : ٣٨

والفرد المسلم له شخصيته المستقلة لايتبع غير الكتاب والسنة ... وهكذا ربى الرسول ﷺ أصحابه تربية القادة لاتربية العبيد ، فليس المسلم بالمستكبر عن عبادة الله والخضوع للحق ، ولا تفنى شخصيته وتذوب في شخص إنسان مثله .

والمسلم يعتبر نفسه مسؤولاً مسؤولية شخصية عن هذا الدين يبلغه بالطرق الشرعية الصحيحة ، وفي سبيل ذلك يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو يحب الخير للناس كما قال عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه : « كنتم خير أمة تجرون الناس إلى الجنة بالسلاسل » ، وذلك بسبب الأمر بالمعروف وازاحة الطواغيت الذين يتخذون عباد الله خولاً ، ومال الله دولاً .

والمسلم يرى أنه مكلف بحماية هذا التبليغ وذلك بالجهاد في سبيل الله ، وهنا يضحي المسلم بنفسه في سبيل نصرة هذا الدين ، وعن طريق هذا الجهاد سيدخل الناس في دين الله افواجاً... وهذا خير لهم وإن كانوا لايعلمون ...

وإنما يركز فضيلة المؤلف ـ عليه رحمة الله ـ على الجهاد في سبيل الله لأنه يعلم أن هذا الأمر العظيم من سنن الكون :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » (١) .

---

(١) البقرة : ٢٥١

فالحياة تركد وتاسن إذا لم يكن هناك جهاد لارجاع الناس إلى جادة الصواب .

ويلاحظ في هذا الترتيب لبعض المبادىء مـن كتاب الله انه ترتيب بنائي يقوم على قاعدة صلبة في العبودية لله وحـده . كمـا يلاحظ حرص المؤلف ـ رحمه الله ـ على الرجوع بالمسلمين إلى الكتاب والسنة وتنقية اذهانهم مما علق فيها من أوضار الجاهلية والفهم غير الصحيح لآيـات الكتاب الحكيم .. ممـا ادى بهم إلى الذل والهوان .

واخيراً نرجو أن يكون لما ننشر لفضيلته من محاضرات ودروس، اثر طيب في توعية المسلمين والنهوض بهم والله الموفق .

الناشر

١٠ محرم ١٤٠٠ هـ

● ● ●

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات اعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، واشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد ان محمداً عبده ورسوله ...

أما بعد :

فلا بد للمسلم إذا أراد أن يسير في الطريق السوية ، ان يفهم سبيل دعوته واسسها ومبادئها مستقاة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ ، وآيات الله في الآفاق والأنفس .

وسنعرض في هذه الصفحات بعض هذه المبادىء الأساسية لعلها تنير الطريق لمن سعى واخلص السير في طريق الدعوة إلى الله .

العبادة لله وحده

قال تباركت اسماؤه : « **حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الرياح في مكان سحيق** » (١) .

في فطرة الانسان تطلع إلى الحق ونزوع إلى الخير ، وفي جبلة هذا الانسان ميل للسجود للذي برأه والاعتراف له جل شأنه بالوحدانية والتفرد في ملكه والقهر والسيادة .

وثمرة هذا الاعتراف الاذعان لخالق الكون والخضوع لأمره وألا يرى المخلوق لنفسه سيادة على هذا الكون فليس لبشر أن يستعلي في الأرض ويطلب عبادة الناس له .

وهذا المبدأ هو الذي جاء به الأنبياء جميعاً ، وبعثت الرسل من أجله إنه : دعوة الناس إلى عبادة الله وحده ليخرجوا الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله ولقد كان نداؤهم جميعاً نداءً واحداً: « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » (٢) . ولكن أكثر الناس عتوا عن أمر ربهم وعظم لديهم أن يعبدوا إلهاً واحداً .

---

(١) الحج : ٣١

(٢) هود : ٥٠ .

لقد كان أكثر هؤلاء معترفين لله جل شأنه بأنه الخالق الرازق مالك الملك بيده الخير، وكانوا على رغم هذا كله يستنكفون عن عبادته وحده عناداً واستكباراً . قال تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل أفلا تذكرون ! قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله . قل أفلا تتقون ! قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل فأنى تسحرون ! »[1] .

لقد عظم على كثير من الناس أن يعبدوا الله وحده لأن ذلك يخرجهم من سلطانهم على الناس .

إن الانسان ــ من بين المخلوقات جميعها ــ أبى إلا أن يقوم في وجه أخيه الانسان يستعبده ويستذله ويسخره لطاعته وخدمته ويدعي الالوهية فوقه ، يدفعه إلى ذلك نهمه إلى السلطان وجشعه إلى الاستعلاء . ولقد كانت دعوى الألوهية ضروباً وألواناً ، فمن الناس من ادعى الالوهية من غير استخفاء ولا مواربة وكان فرعون مثلاً لهؤلاء إذ نادى بقومه : « أنا ربكم الأعلى »[2] وقال : « ما علمت لكم من إله غيري »[3] ، وكان من هؤلاء النمروذ الذي حاج ابراهيم وادعى أنه يحيي ويميت .

---

(١) المؤمنون : ٨٤ ــ ٨٩

(٢) النازعات : ٢٤

(٣) القصص : ٣٨

ومن الناس أناس يدعون أنهم وحدهم القادرون على فهم الكتب المنزلة من عند الله يُحلّون فيها ما يشاؤون ، وقد قال تعالى في شأنهم : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله »[1].

وأشد هذه الأصناف خطراً اليوم أصحاب المذاهب الجديدة الذين يشرعون للناس نظماً تغاير شريعة الله ويدعون إلى مبادىء تحاد مبادىء الله ، وإن كثيراً من المثقفين اليوم لم يعودوا يخدعون بمثل الدعوات القديمة والوثنيات البائدة ولكن دعوات الوثنية الجديدة قد وجدت سبيلها إلى كثير منهم وإلى كثير من عقــول أبناء المسلمين ..

ولقد تطورت معاني استعباد الانسان للانسان واتخذت في الأيام الاخيرة مظهر العلم ولبست لبوس البحث الحر وادعت أن الحقائق العلمية تؤيدها . وأشد أنواع وثنية هذا العصر : وثنية الشيوعية ووثنية الفاشية والنازية .

أما الأولى فقد كفرت بالله وجحدت أن للانسان روحاً ، وآمنت بالمادة وحدها وادعت أنها تريد أن ترفع الظلم عن الانسان وأن تنصف البائس الفقير وتأخذ للعامل المظلوم حقه من صاحب العمل الظالم فكانت أشد ظلماً للانسان من كل ما عرف الانسان من ظلم ، وسمحت للوصول إلى ما تدعيه بتحكيم عدد يسير من الناس ــ هم رجال الحزب الحاكم ــ برقاب مئات الملايين مــن

---

(١) سورة التوبة ــ الآية ٣١

الناس يسوقونهم بالسوط والعصا والحديد والنار إلى عبادتهم والخضوع لآرائهم والاذعان لتشريعاتهم شاؤوا أم أبوا •

يقول (ميلوفان جيلاس) الذي اعتنق المبدأ الشيوعي وصعد سلم الكفاح في سبيله درجة بعد درجة حتى أصبح نائباً لرئيس الجمهورية اليوغوسلافية فترة طويلة من الزمن ، ثم رأى بعد كل هذا ما دعاه إلى الانسحاب من الحزب حين لمس ما يختفي وراء النظرية الماركسية من تهافت فكري وظلم شامل وبغي ، ونجتزىء ههنا كلمة واحدة من كتابه الذي ألفه ليثبت تناقض الشيوعية ووقوعها في أشد أنواع الظلم الاجتماعي الذي ادعت أنها كافحت لانقاذ الناس منه •

يقول جيلاس: «أمّا لينين فقد مات وهو زعيم ثورة من أكبر الثورات ولكنه مات كديكتاتور بدأت الطقوس تنسج حوله ، وأما ستالين فقد مات بعد أن حول نفسه إلى إله » •

أما دعاة النازية والفاشية فهم اتباع موسوليني وهتلر يتبعونهم حذو القذة بالقذة • يقول موسوليني : « الفاشستية هي قدر الأمة الايطالية » ويقول : « إن القدر الذي حملنا رسالة الفاشستية أعطانا الحق في أن نأمر بقوة وتتصرف بقسوة » •

ويقول متبعوه : « ان عقيدتنا لايمكن الوصول إليها بالعقل ولكن بالايمان وحده » • فهي إيمان بلا عقل وبلا بصيرة ،

والغرض من ذلك كله انتزاع حرية العقل وانتزاع حرية الناس ليكونوا اتباعاً لمن لا يؤمن بالله • ولا ينجي الناس من كل هذا إلا الرجوع إلى فطرتهم النقية ليعبدوا إلهاً واحداً ما لهم من إله غيره•

قال تعالى : « **ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق** » (١) •

* * *

---

(١) الحج : ٣١

الأخوة في الله

قال تباركت اسماؤه : ((**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**)) (١) •

ليست الاخوة ههنا قائمة على الاشتراك في الأرض أو الاشتراك في الوطن أو الاشتراك في الجنس أو الدم أو العرق ولكنها الاخوة القائمة على المشاركة في المبدأ والعقيدة • وليست الدولة التي أنشأها الاسلام دولة أمة أو شعب أو أرض أو وطن أو جنس أو دم أو عرق ، ولكنها دولة الفكرة •

ولقد علم أعداء الاسلام هذا وعلموا ما لأثر العقيدة في نفوس المسلمين ، ورأى أعداء المسلمين أن المسلمين في جميع أقطار العالم تجمعهم جامعة واحدة • واعداء المسلمين لا يخشون أمراً مثل خشيتهم اجتماع المسلمين ووحدة كلمتهم •••

لقد تعاونت الصليبية والصهيونية وتعمل كل واحدة منهما في ناحية ، هذا إلى جانب عوامل داخلية •• فإذا بعقيدة جديدة تنبت في بلاد المسلمين وإله جديد يعبد في الأرض يكسر الوحدة

---

(١) سورة الحجرات ـ الآية ١٣ .

ويفتت الجماعة ، وإذا بعبادة جديدة يستوردها بعض علماء الغرب من ديار الغرب ينادون بها في ديار الاسلام ويزعمون أنها ديانة العصر الحديث والمدنية الجديدة ، إنها عبادة القوم وتقديس الأمة. ينقل الاستاذ الندوي في كتابه « العرب والاسلام » عن مقال للاستاذ محمود تيمور في مجلة العالم العربي العدد (١٧١) ما يلي: لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة ... إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي .

« كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » (١) .

وإنه لأمر عظيم ما عرف التاريخ له مثيلاً من قبل ولا من بعد ، ما عرف التاريخ دولة أسست كما أسس الاسلام دولته على مبدأ الاجتماع على الفكرة والعقيدة . فكل من قبل دعوتنا وآمن بالله رباً ، وبمحمد نبياً ، وبالاسلام ديناً ، وصلّى صلاتنا وتوجه إلى قبلتنا .. فله ما لنا وعليه ما علينا سواء أكان أبيض أم أسود.. وسواء أكان عربياً أم فارسياً أم هندياً ...

يقول فتحي عثمان في كتابه « دولة الفكرة » :

« دولة الفكرة هي حلم البشرية ، إنها دولة لاتقوم على حتمية ظروف الأرض أو الدم .. ولكنها تقوم على اختيار الانسان بوعيه الكامل وارادته الحرة .

---

(١) سورة الكهف ــ الآية ٥ .

وبالنسبة للفكرة ، كل أرض سواء ، وكل سلالة سواء ..
إنها تخاطب الفكر في أي انسان وكل انسان .

ولقد كانت الدولة التي أقامها رسول الاسلام في المدينة مثلاً حياً مبكراً للدولة المثالية في التاريخ لم تكن دولة مكة أو قريش .. ولا دولة المدينة أو الأوس والخزرج .. بل كانت دولة الإسلام المعروض على كل انسان .

دولة التقى فيها المهاجرون والأنصار مع صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وكان هذا اللقاء لقاء تاريخياً فريداً ...

فكانوا جميعاً أعضاء مؤسسين ومواطنين أصيلين في هذا المجتمع وهذه الدولة ، وهكذا تحقق الحلم المنشود في ذلك الزمن البعيد » .

وإنه لأمر عظيم يقف التاريخ أمامه مشدوهاً أن يرى الأمة المغلوبة المقهورة التي كانت قبل لحظات تسفك دماءنا وتستبيح حرماتنا ـ حين تنقلب إلى فكرتنا واعتناق مبدئنا ـ ، تغدو لها مالنا وعليها ما علينا ويصبح الجميع إخوة . ما عرف التاريخ في الفاتحين مثيلا لهذا . قال تعالى :

« فإن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون » (١) .

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ١١

عدم موالاة غير المؤمنين

قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالاً ودّوا ماعنتّم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون »** (١) .

إن هذه الآية الكريمة دستور هام وقاعدة أساسية تفتح عيون المسلمين وتوقظ قلوبهم على عدو شديد الخطر عظيم الأثر يعمل داخل بلاد المسلمين وبالقرب منهم ، وإذا واتته الفرصة ضرب ضربته وأبدى صفحته وكشر عن أنيابه ، ولم يرع في المسلمين إلاً ولا ذمة .

والآية الكريمة وثيقة الصلة بما قبلها وما بعدها من الآيات، وهي من مثل قوله تعالى :

« إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين » (٢) .

هذه تنهى عن الطاعة مطلقاً ، والآية التي نحن بصدد تفهمها وتدبر معانيها تنهى عن اتخاذ بطانة من غير المسلمين ، وهذا الاتخاذ

---

(١) آل عمران : ١١٨

(٢) آل عمران : ١٠٠

وسيلة" ذات خطر كبير في التأثير في المسلمين وإيقاعهم في أحابيل قد تؤدي بهم إلى الشر الكبير • فآية النهي عن الطاعة عامة تشمل كل وسيلة تؤدي إلى الطاعة • والآية الكريمة ـ هذه ـ خاصة في حال معينة قد تؤدي لا إلى حمل المسلمين إلى طاعة الكافرين فحسب بل قد تؤدي إلى ضياع سلطانهم وتمزق أمرهم •

وفي سبيل إيضاح شيء من إعجاز هذه الآية الكريمة ـ التي تحذر المسلمين من الطوائف المعادية للمسلمين عامة منذ بزغ فجر هداية بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ـ ننقل شيئاً يسيراً من عمل اليهود ومكرهم في العالم كله فضلاً عن العالم الاسلامي •

يقول مؤلف كتاب « الدنيا لعبة إسرائيل » ـ وهذا الكتاب جدير بالمطالعة مؤلفه ضابط أميركي عمل في المخابرات الأميركية زمناً طويلاً وجاب البلاد طولاً وعرضاً وهو يقول إن أبحاثه استمرت أربعين عاماً حتى وصل أخيراً إلى لب الحقيقة ، والكتاب مترجم إلى العربية ـ بشأن القضية الفلسطينية في أول ظهورها (ص١٩٥): « وضعت الصهيونية السياسية نُصب عينيهـا تحقيق الهدفين التاليين :

١ ـ اجبار دول العالم على الاعتراف بالوطن القومي لليهود في فلسطين وبالتالي إنشاء دولة مستقلة تكون هي وطن المؤامرة وقاعدة المستقبل •

٢ ـ تأمين السيطرة على ثروات المنطقة بأكملها •

كانت الخطوة الاولى اصداو وعد بلفور عام ١٩١٧ م الذي تعهدت بموجبه انكلترا وفرنسة والولايات المتحدة بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين وتلا ذلك فوراً بدء التنفيذ العملي : فأصدرت الأوامر إلى الجنرال اللنبي قائد الجيش الانكليزي في الشرق الأوسط بطرد الأتراك من الشرق الادنى واحتلال الأراضي المقدسة — أي فلسطين — وقد قامت السلطات البريطانية بعملية غادرة فتفادت الكشف عن تصريح بلفور حتى تمت جميع العمليات الحربية بمعونة العرب .

أما المرابون الماليون اليهود فما أن تم احتلال فلسطين حتى طلبوا من الحكومة البريطانية تعيين لجنة صهيونيـة في فلسطين وتعيين مندوبيهم السياسيين أعضاء لها ، على أن تكون مهمة هذه البعثة تقديم النصح للجنرال كلايتون الحاكم العسكري لفلسطين.

وقد باشرت هذه اللجنة عملها بالفعل في آذار ١٩١٨ وكان أعضاؤها الرئيسيين :

الكولونيل أورمبسي رغور : الذي عين فيما بعد مديراً لبنك ستاندارد في جنوب إفريقية وهو البنك الذي يسيطر على مناجم الذهب والماس في جنوب إفريقية . كما أنه هو الذي يمول أيضاً سياسة التفرقة العنصرية التي تتبعها تلك البلاد .

الكولونيل جيمس دي روتشلد ابن ادموند دي روتشيلد رئيس الفرع الفرنسي لأسرة روتشيلد ومنشىء تل أبيب وعدد من المستعمرات اليهودية . وقد أصبح جيمس دي روتشيلد عضواً في

مجلس العموم البريطاني من ١٩١٩ ــ ١٩٤٥ ثم عينه تشرشل وزيراً للشؤون البرلمانية في حكومته .

الملازم أدوين صموئيل اليهودي الذي عين مديراً للرقابة البريطانية في حكومة تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية ، وعندما تأسست إسرائيل عام ١٩٤٨ عين مديراً للإذاعة الإسرائيلية .

المستر اسرائيل سيف الذي لعب دوراً مجهولاً من أخطر الأدوار في الحياة السياسية البريطانية المعاصرة ، فقد أصبح فيما بعد رئيس لجنة التخطيط الإقتصادية والسياسية ، وهي كما يعلم المطلعون على طريقة عمل أجهزة الحكم في بريطانية ، اللجنة التي توجه السياسة الاقتصادية والشؤون السياسية للوزارات المتعاقبة في الحكم .

حاييم وايزمان : وهو لايحتاج إلى تعريف ... » .

إلى أن يقول المؤلف :

« بدأت المفاوضات أخيراً في مؤتمر السلام فكانت مهزلة شبه مكشوفة أسقط فيها سادة المال العالميون القناع وبدأ نفوذهم جلياً .

ولسنا بحاجة إلى كبير جهد لتوضيح ذلك إذ يكفي أن نذكر أن رئيس الوفد الأميركي كان بول واربورغ وهو اليهودي الممثل الرئيسي لمجموعة المرابين العالميين ــ اليهود في أميركا ــ ولم يكن رئيس الوفد الألماني سوى شقيقه بالذات ماكس واربورغ» .

ثم يقول المؤلف : « يسهل علينا والحالة هذه أن ندرك كيف تحول مؤتمر السلام إلى مؤتمر استعماري شرس وكيف وافق دون تردد على كل القرارات ذات الغايات الخبيثة أو ذات النتائج الخطرة ••• وفيما يتعلق بفلسطين فقد وضع مشروع الانتداب الانكليزي عدد من كبار الصهيونيين العالميين وعلى رأسهم :

البروفسور فيليكس فرانكفورتر : وهو يهودي صهيوني أصبح فيما بعد مستشاراً رئيسياً في البيت الأبيض في عهد رئاسة فرانكلين روزفلت •

السير هربرت صامويل : وهو أول مندوب سام في فلسطين بعد الاحتلال الانكليزي •

لوشيان وولف: المستشار الخاص لرئيس الوزراء الانكليزي لويد جورج » •

كل هذا يبين لنا كيف يتلاعب اليهود بالعالم كله وليس ذلك كله إلا حين نامت أعين الرجال وغفت قلوب المؤمنين ••

وهكذا يتبين لنا أن على المسلمين أن يحذروا أفراد المجتمعات المناوئة المعادية • إن الغالب على المجتمعات التي لا تؤمن بالإسلام أن تظل على جاهلية وكفر وبُعْدٍ عن الخلق الكريم ولا تقيم للحق وزناً ولا ترعى للمثل الفاضلة حقاً ، ويغلب عليها المتسلطون الطامعون الماكرون ويساق فيها الضعفاء سوقاً إلى طاعة أسيادهم وأتباعهم ؛ ولذا كان عداؤها للمجتمعات الإسلامية قائماً على

معاداة الشر للخير والباطل للحق • والشر لا يرضى أن تعلو دولة الخير ، والباطل لا يطمئن إذا غلب صوت الحق •

ولذلك كان بين دعاة الإيمان ودعاة الباطل نزاع دائم وكان بين المجتمعات القائمة على الحق والمجتمعات القائمة على الشرور صراع مستمر •

وعلى المؤمنين أن يعرفوا هذا ويستيقنوه ويؤمنوا بأن الذين لا يقبلون كلمة الحق لا بد وأن يتعرض المؤمنون لكيدهم وعدائهم ، وقد يستثنى من هذه القاعدة أناس لم يتضح الحق لهم جلياً وهم ليسوا على طوية سيئة ، ومثل هؤلاء يتقبلون الحق ولا يعادونه • وقد قال تعالى في شأنهم إقامة للعدل في أعلى درجاته : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »[1] •

وإذا بحثنا بالمجتمعات غير الإسلامية عن هؤلاء الذين لايقاتلون أفراد المجتمع الإسلامي ولا يعادونه ، لرأيناهم في ندرة تامة ، ولو بحثنا في أيامنا الحاضرة لوجدنا الناس جميعاً يرمون المسلمين عن قوس واحدة ، فالمجتمعات الأوربية والأميركية والنصرانية، باستثناء أفراد على ندرة تامة،والشيوعية والاشتراكية

---

(١) سورة الممتحنة ـ الآية ٨ .

والصهيونية كل هذه ترى في الإسلام عدواً لدوداً تخشاه وتحمل له أشد الكراهية ، ويصدق على هؤلاء جميعاً قوله تعالى : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر »[1] ، ولعل في بعض المجتمعات البدائية ــ التي ما تزال على وثنيتها ولم تتأثر برأي المجتمعات النصرانية ــ شيئاً من التسامح نحو الإسلام ، أو عدم حمل أي عداوة نحوه ، ولعل هؤلاء حين يسبق المسلمون إلى دعوتهم يستجيبون استجابة سريعة . أما غير هؤلاء في المجتمعات الحاضرة فهم كما ذكر الله أعداء ألدّاء .

وفي الموضوع نفسه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون »[2] .

الآية الكريمة نهت عن موالاة المشركين ونهت عن إلقاء المودة إليهم وبينت أن من يتخذ الكافرين أولياء فقد ضلّ سواء

---

(١) سورة آل عمران ــ الآية ١١٨ .

(٢) الممتحنة : الآيتان ١ ، ٢ .

السبيل ، ولم تقدم النهي خالياً عن بيان أسبابه ، ولم تطلب أمراً من غير إظهار حججه بينة قاطعة ، فالمشركون قد كفروا بما نـزل على المؤمنين من الحق أولاً • وأخرجوا الرسول والمؤمنين من ديارهم بغير حق ثانياً ، لا لسبب إلا لإيمانهم بالله ربهم • والأمر الثالث : هؤلاء المشركون إن يظفروا بالمؤمنين ؛ فليس لهم ومنهم إلا العداء والحرب وبسط الأيدي بالقتل وبسط الألسنة بالشتم • والأمر الرابع : إن هؤلاء المشركين لا يقرون ولا يستقرون حتى يعود المسلمون إلى الكفر •

والآية الكريمة التي نحن بصددها تنهى المؤمنين أن يتخذوا بطانة من دونهم ، والمراد بالبطانة هنـا ـ كما ذكرنا ـ اليهود والمنافقون وجميع أصناف الكفار •

* * *

نفسية الكافرين :

يقول الله تعالى في سورة آل عمران : ((**ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون.ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ.قل : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور.إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط**)) (١) .

بينت الآية الكريمة أسباب النهي بالكشف عن نوايا هؤلاء الأعداء ودخائل نفوسهم السيئة :

الأمر الأول قوله تعالى : « لا يألونكم خبالاً » : والخبال في الأصل : الفساد الذي يلحق الإنسان فيورثه اضطراباً كالمرض والجنون . والمعنى لا يقصرون في فساد أمرهم ، بل يجهدون فيه ما وسعهم الجهد ، واختيار لفظة الخبال في الآية الكريمة للإشارة إلى أنه نوع من الفساد لا يصلح معه رأي ولا ينفع فيه تدبير .

---

(١) آل عمران ـ الآيات ١١٨ ـ ١٢٠ .

والأمر الثاني قوله تعالى : « ودوا ما عنتم » : والعنت دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة ـ أعنته : أوقعه في الهلكة ـ وقوله عز وجل : « واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم »[1] أي لوقعتم في العنت أي الفساد والهلاك. وفي التنزيل : « ولو شاء الله لأعنتكم »[2] . معناه : لو شاء لشدد عليكم وتعبدكم بما يصعب عليكم أداؤه كما فعل بمن كان قبلكم، وقد يوضع العنت موضع الهلاك فيجوز أن يكون معناه ، لو شاء الله لأعنتكم أي لأهلككم.وعلى هذا فقوله تعالى : «ودوا ماعنتم» أي تمنوا ما يهلككم .

والأمر الثالث قوله تعالى : « قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر » : أي ظهرت أمارات العداوة من فلتات ألسنتهم وفحوى كلماتهم لأنهم لشدة بغضهم لا يملكون أنفسهم ولا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم ، ولكن ما تخفي صدورهم من كيد وغل وحنق وبغض أكبر مما ظهر منهم ، وهكذا تصرح الآية الكريمة أن قلوبهم تنطوي على أكبر أنواع البغض والكراهية .

وقد ذيلت الآية الكريمة بما يحض المسلمين على توقي هذه الشرور وتجنب مكر هؤلاء ؛ ذلك أن الأمر بيّن والحجج واضحة كالنهار إن كانوا يعقلون . قال تعالى : « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » .

---

(١) الحجرات ـ الآية ٧ .

(٢) البقرة ـ الآية ٢٢٠ .

الأمر الرابع قوله تعالى : « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » . وفي الآية الكريمة ما يدل على سلامة قلب المؤمن وحبه للناس ورغبته في الخير لهم جميعاً ، ولكن الكافر منطو قلبه على اللؤم ، فهو يستغل سلامة قلب المؤمن لايذائه وإيقاع الشر به . والآية تشير إلى سوء أخلاق الكافرين وما انطوت عليه نفوسهم الخبيثة ، فالإنسان من طبعه أن يقابل الإحسان بالإحسان، ولكن هؤلاء يقابلون الإحسان بالإساءة ، ولذلك يلام المؤمنون على حبهم وموالاتهم . قال الزمخشري : فيه توبيخ شديد بأن الكافرين في باطلهم أصلب من المسلمين في حقهم .

الأمر الخامس قوله تعالى : « وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » . وفي هذا بيان لضعف نفوسهم وخسة ضمائرهم ، فهم ليسوا بالرجال الذين يعلنون حقيقتهم ، ولكنهم يظهرون إيماناً ويبطنون كفراً ، ويبدون مودة ويسرون أشد أنواع العداوة ، وهذا الوصف وصف المنافقين واليهود ، وشأن هؤلاء أنهم يستحقون أن يموتوا بغيظهم ، وهم يشهدون بأم أعينهم رفعة الإسلام وعزة أهله . قال تعالى : « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » .

الأمر السادس قوله تعالى : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » .وليس هذا شأن الصديق المحب، بل هو شأن العدو الموغل في عداوته .

وإن المتأمل في الآيات الكريمة ليعجب غاية الإعجاب بأحكامها ودقة وصفها وعمق بيانها لصفات هؤلاء الأعداء واستخراج خفايا نفوسهـم .

يبغون للمسلمين الخبال والشر والفساد وأن ينتقض أمرهم ويذهب تدبيرهم ، وهم يسعون في ذلك دائبين لا يصيبهم كلل ولا يعتريهم ملل .

وهم يتمنون بعد فساد أمر المسلمين أن تصيبهم الشدائد فتهلكهم وتقطع دابرهم .

وهم يكنّون في أنفسهم العداوة والبغضاء ، ويبدو ذلـك في فلتات لسانهم ، والمؤمنون يضمرون لهم الخير ويظهرون لهم المودة ويؤمنون بكتابهم وهؤلاء يحملون في قرارة نفوسهم مقابل ذلك كرهاً وحقداً وغلاً .

وهؤلاء بلغت بهم الخسّة أنهم يظهرون بمظهر الود والموافقة للمؤمنين في إيمانهم وعقيدتهم ، فإذا خلوا إلى أنفسهم أظهروا عداوتهم وأكل الغيظ قلوبهم . وهل يستحق أمثال هؤلاء إلا أن يموتوا بغيظهم ... إن الله عليم بخفايا صدورهم .

وهؤلاء إن أصاب المسلمين أدنى خير قتلهم الكيد ، وإن أصاب المسلمين الشر طاروا من الفرح .. أينبغي للمؤمنين أن يوادوا هؤلاء ويتخذوا منهم بطانتهم ؟! والآيات الكريمة تحذر

الماضين والحاضرين من المؤمنين بأروع بيان وأوضح دليل • وليس للمسلمين بعد هذا كله أن يخشوا شر هؤلاء ، وحسب المسلمين الصبر والتقوى ، فهما الدرعان اللذان يقيان كل عادية ويدفعان كل كيد ، فليس الله بغافل عنهم ولا مهمل أمرهم • قال تعالى : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط »[1] •

مآل طاعة الكافرين الخسران :

وقال الله تباركت أسماؤه : **« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ، بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ، سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » (٢)•**

تؤكد الآيات الكريمة أن طاعة المؤمنين للكافرين من ورائها الارتداد إلى الكفر والانقلاب إلى الخسارة في الدنيا والآخرة وليس للمؤمنين أن يحسبوا للكافرين حساباً مهما عظم أمرهم واشتد سلطانهم ، ذلك أن للمؤمنين في نصر الله ما هو حسبهم ، ولهم في عون الله جل شأنه ما يكفيهم عن عون كل ما سواه •

---

(١) آل عمران ــ الآية ١٢٠ •

(٢) آل عمران ــ الآيات ١٤٩ ــ ١٥١ •

وكأنّ سائلاً يسأل فيقول : كيف يتم عون الله وكيف يتنزل نصره إذا اشتد الخطب واحلولك الظلام ؟ وتجيب الآية الكريمة إجابة مصدرة بنون العظمة،ويتحول الخطاب من الغيبة إلى الحضور ليسمع المؤمن كلام ربه جل شأنه ليس بينه وبينه حجاب وليستيقن المؤمن أن الأمر واقع ليس له دافع . قال تعالى : « سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب»[1]: كلمة تدوي في الكون كله يشهدها الكون ، ويشهد بها كل ذي عقل .. قلوب الكافرين ممتلئة رعباً، وقلوب المؤمنين تحيط بها السكينة وتحفها الرحمة وإن حَزَبَ الأمر وأحاط الأعداء من كل جانب .

ولس مثال هذا الوعد لمؤمني اليوم فليست القلوب هي تلك القلوب وليس الرجال هم أولئك الرجال .. لقد خالفوا عن أمره جل ثناؤه ولقد قال تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .[2] .

وكأني بسائل يقول : كيف يلقى الرعب في قلوب الأعداء وهم غالبون محصنون متمكنون ؟ وتجيب الآية الكريمة : فتقول : « بما أشركوا بالله مالم ينزّل به سلطاناً »[3] . وهكذا تكشف الآية الكريمة عن حقيقة نفسية وقاعدة اجتماعية :

---

(١) سورة آل عمران ــ الآية ١٥١ .

(٢) سورة النور ــ الآية ٦٣ .

(٣) سورة آل عمران ــ الآية ١٥١ .

الجماعة الجاحدة لله المشركة به جل شأنه ما لم ينزل به سلطاناً هي جماعة تكون أفرادها تكونا غير سليم ونشئوا نشأة غير صحيحة ، وهي جماعة غير متزنة وغير سالمة من الآفات النفسية والعيوب الاجتماعية ، ذلك أن المبادىء التي تقوم عليها والمناهج التي تنهجها ليست المناهج التي تصلح لفطرتها وليست بالذي يقوم أمرها •

أوضحت الآية الكريمة طابع مثل هذه الجماعة وكشفت عن خاصتها ، طابعها الرعب وخاصتها الجبن •

وإن هذا المعنى ليشاهد في كل جولة تتم بين المؤمنين وأعدائهم حين يكون للمؤمنين نصيب يسير من صفاتهم الأولى •

إن الفضائل الكاملة من اعتدال واتزان وإقدام في مواطن الإقدام ، كل هذه ليست إلا لذوي الأمزجة المعتدلة والعقول الراجحة والأذواق السليمة التي آمنت بأن لهذا الكون إلهاً لا يصح أن يعبد سواه •

وهكذا يكون غير المؤمنين حثالة الناس وأسوأهم مزاجاً وأردأهم تفكيراً •

والمشكلة الكبرى التي نواجهها اليوم فتنة كثير من أبنائنا بالمدنية الغربية ، كيف يمكن أن يصدق على هؤلاء ــ الذين بلغوا ما بلغوا من معرفة بالكون وسننه في النواحي الكونية والنفسية والاجتماعية واستطاعوا بذلك خدمة الانسانية وتخفيف

آلامها ــ قوله تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا »[1] .
كيف يصدق عليهم أنهم ذوو قلوب مريضة وشخصيات ضعيفة وعقول هزيلة يملأ الرعب جنباتها ؟ والإجابة عن هذا ما قاله ألكسيس كارل ــ الطبيب العالم الباحث في معاهد روكفلر العلمية بنيويورك المتوفى عام ١٩٤٤ ــ إنه يوضح في كتابه : « الانسان ذلك المجهول » : أن المدنية الحاضرة لا تصلح لهذا الانسان لأنها تجهله جهلاً تاماً ، وهو يقول لئن كانت العلوم التي تتعلق بالجماد قد تقدمت فإن العلوم التي تتعلق بالانسان في تأخر مخيف . يقول : « إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والامم الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والبهيمية أسرع من عودة غيرها إليهما ... إن القلق والهموم التي يعانيها سكان المدن العصرية تتولد من نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. إننا ضحايا تأخر علم الحياة عن علوم الجماد . »

إلى أن يقول : « إن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطير الذي تعاني منه المدنية العصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية .. »

---

(١) الروم ــ ٧ .

إنه لموضوع جدير بدراسة المسلمين أن يعلموا إلى أيـن تسير الحضارة الغربية ؟ وما النهايـة التي تنتهي إليهـا • ومن المؤسف جداً أن المسلمين لا يحصلون في هذا الموضوع وغيره إلا على فتات ما تلقيه إليهم الموائد الغربية ولا يستطيعـون أن يعرفوا الحقيقة إلا كما يريد هؤلاء أن يعرفوهم بها •

إن المسلمين قد انتهى أمرهم إلى ضآلة دون ضآلة أعدائهم الذين لا يؤمنون بالله لسوء التربية التي يتلقونها ولفقدان الهدى القرآني فنشؤوا غثاء كغثاء السيل ونزعت مهابتهم من قلوب عدوهم كما وصف الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام •• ومع كل ذلك فما يزال العدو يخشى جانبهم ويرصد أعمالهم ويرقب أنفاسهم ، وما تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق يقاتلون عليه لا يضرهـم من خالفهم ، وما تزال بذور الإيمان كامنة تنطوي عليها النفوس وتنتظر ساعـة انطلاقها لتمتد فروعهـا في الفضاء وتظل العالم بأفياء السلام •

* * *

المسؤولية

أ ـ مفهوم المسؤولية :

قال الله تباركت اسماؤه : ((**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**)) (١) .

كل حكم بغير ما أنزل الله ، ثلمة تتصل بعقيدة الأمة ونظامها المحكم ورباطها المقدس والمعاني التي تحترمها والقيم التي ترفع من شأنها ، وإن أية يد تمتد إلى أي فقرة من فقرات هذا النظام أو أية مادة من مواده إنما هي يد آثمة مجرمة قد أحدثت خرقاً في قعر السفينة سيؤدي بركابها إلى الهلاك .

وإن السكوت على اليد الآثمة هو في نظر الإسلام إثم أكبر من إثمها وإجرام أبشع من إجرامها . إن هنالك نوعين من الجهاد : جهاد فردي غايته الشخص ، وجهاد اجتماعي غايته الجماعة دعوتها إلى الحق وحملها على الاستمرار في السير عليه . وإن دعوة الاصلاح الفردية مع ترك المجتمع بشروره هي دعوة كاذبة خاطئة .

---

(١) الحديد ـ ٢٥ .

قال الله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصـره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز »[١] . ذكرت الآية الكريمة البينات وهي الحجج الواضحة والبراهين القاطعة وذكرت الكتاب المنزل من عند الله التام في الحكم والأحكام ، وذكرت الميزان وهو العدل والحـق الذي تدركه الأذواق السليمة وتشهد به العقول المستقيمة ، فإن تمرد متمرد أو بغى باغ ليطغى في الأرض أو يظهر فيها الفساد كان الحديد الذي يقومه .

عقيدة التوحيد تحمل كل فرد تبعه حماية العقيدة ، والحاكم الحقيقي في الإسلام هو الله وحده جل شأنه وموقف الذين يقومون بتنفيذ القانون الإلهي في الأرض ، وهم أولو الأمر ليس إلا موقف النائب عن الحاكم ، وهؤلاء خلفاء الله في أرضه ، وكل من قام بالحكم في الأرض تحت ظل الدستور الإسلامي فهو خليفة الله[٢] جل شأنه والله جل شأنه هو الحاكم لا حاكم سواه .

---

(١) سورة الحديد ــ الآية ٢٥ .

(٢) يقول ابن تيمية : (والله لايجوز له خليفة ولهذا لما قالوا لأبي بكر : يا خليفة الله قال : لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ حسبي ذلك بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره : قال النبي ﷺ : اللهم انت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ..) .

قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم »[١] .

والآية الكريمة تجعل خلافة المؤمنين هذه في الأرض خلافة عامة تشمل المؤمنين جميعاً ، فالوعد للذين آمنوا جميعاً لكل من صدق عليه وصف الإيمان ، والاستخلاف في الأرض لهم جميعاً وفي هذا المعنى إشارة واضحة إلى أمرين اثنين :

أولهما : إن هذه الخلافة لا يستبد بها فرد من المؤمنين ، بل هي مشتركة بينهم جميعاً ، فكل مؤمن خليفة من عند الله وكل واحد مسؤول أمام ربه عن هذه الخلافة ، كما جاء في الحديث : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) فليس أحد منهم في هذا الشأن وفي جميع الشؤون الاجتماعية بأحط منزلة من الآخرين .

« المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد على أقصاهم » . رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه .

ومعنى تتكافأ دماؤهم : أي تتساوى في القصاص والديات ولا يفضل شريف على وضيع .

---

(١) النور ـ ٥٥ .

وهم يد على من سواهم : يد واحدة في التعاون والتعاضد على الأعداء .

ويسعى بذمتهم أدناهم :أي أقلهم عدداً وهو الواحد وأقلهم رتبة وهو العبد ، إذا عقد الذمـة للكافر فعقده نافـذ على المسلمين جميعاً .

ويرد على أقصاهم: أي يرد الأقرب منهم الغنيمة على الأبعد.

الثاني : أن المسلمين في هذه الخلافة جماعة واحدة ويد واحدة وجسم واحد ، وليس معنى انتقاء واحد من المسلمين ليقوم بشؤون المسلمين أن الآخرين أصبحوا في حل من الاهتمام بشؤون الأمة وضاعت مسؤوليتهم ، بل الجميع مسؤولون على سبيل التعاون والتآزر والتضامن والتكافل .

إن تربية الإسلام هي تربية روح المسؤولية،وللقيادة مكانتها وحبها واحترامها ،ولكن الإسلام أوجد الإنسجام الكامل بـين طاعة القيادة واحترامها وامتثال أمرها ما دامت تمثل الفكـرة الإسلامية تمثيلاً صحيحاً ، وبين تنمية روح النقد وتحمل التبعات.

كانت تربية أصحاب رسول الله تربية الطاعة التامة للقيادة ولكنها في الوقت نفسه تربية على القول بالحق والجهر به أينما كانوا لا يخشون في الحق لومة لائم .

ب ـ تربية المسؤولية :

قال الله تباركت أسماؤه : ((**يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا**))(١) .

حرص محمد ﷺ أن يعلم أصحابه أنه إنما هو بشر يرضى كما يرضى البشر ويغضب كما يغضب البشر ويخطىء ويصيب في الأمور الدنيوية كما يخطىء البشر ويصيبون مع عصمة الله لـه فيما يبلغه عن ربه ، كل ذلك كيلا يغالي أصحابه في تعظيمه فيرفعوه فوق مرتبة البشرية كما فعل أتباع الأنبياء السابقين . كان عليه الصلاة والسلام يعلم أصحابه فيقول لهم : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريـم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله) رواه البخاري .

وفي سبيل هذه التربية لم يكن رسول الله ﷺ يقطع بأمر دون استشارة أصحابه ، ففي بدر يقف ﷺ حينما أتاه خبر مسيرة قريش إلى المسلمين فيستشير من معه من أصحابه فيتكلم أبو بكر وعمر ثم المقداد كلاماً حسناً فلا يكتفي ، ولكنه يظل ينظر إلى القوم ويقول لهم : أشيروا علي أيها الناس حتى يقوم سعد بن معاذ، ويقول مقالته الطيبة ، فيقول عندذلك ﷺ :((سيروا وأبشروا

---

(١) النساء ـ ١٧١ .

فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين • والله لكأني انظر إلى مصارع القوم » •

والرسول ﷺ يستشير أصحابه ويدع رأيه لرأيهم ففي بدر أيضاً يتكلم الحباب ابن المنذر بشأن المكان الذي ينزلون فيه ، فينهض رسول الله ﷺ ويتحول إلى المكان الذي يسير به الحباب رضي الله عنه •

ويقترح سعد بناء العريش فيوافق عليه الصلاة والسلام • وفي غزوة أحد يستشيررسول الله ﷺ أصحابه في الخروج لملاقاة العدو أو البقاء في المدينة ، وكان رأي كثير من الصحابة ممن لم يكن له شرف القتال في بدر ، الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة ، ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله حتى وافقهم عليه ثم ندموا وقالوا : استكرهناك يارسول الله ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد • فقال ﷺ (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته ـ أي درعه ـ أن يضعها حتى يقاتل) •

وفي غزوة الخندق قبل رسول الله مشورة سلمان بحفر الخندق وكان ﷺ يعمل إلى جانب العاملين •

روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : « لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله ﷺ ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلد بطنه وكان كثير الشعر » •

وفي هذه الغزوة أرسل رسول الله إلى سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة فاستشارهما أن يصالح قبيلة غطفان على ثلث ثمار المدينة كي ينصرفوا عن قتال المسلمين فقال له يا رسول الله : أهو أمر تحبه فنصنعه ، أم شيء أمرك به الله ، أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : « بل شيء أصنعه لكم كي أكسر عنكم شوكتهم » . وحينئذ قال له سعد بن معاذ ، والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فتهلل وجه رسول الله ﷺ وقال له « فأنت وذاك » .

في كل هذه الأمثلة ترى تربية رسول الله لأصحابه واعترافه ﷺ برأيهم ورضاه بصراحتهم وجرأتهم في الحق ، وهذه التربية تنتج قادة يحملون التبعات ، لا أتباعاً يسيرون وراء كل ناعق .

ومن أمثلة هذه المواقف موقف الصحابي أبي حذيفة حين قال رسول الله في غزوة بدر: «من لقي منكم العباس بن عبد المطلب عم النبي — ﷺ — فلا يقتله فإنما أخرج مستكرها . فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس ، والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف » .

إنه لموقف يتجلى فيه الصدق والصراحة والجرأة — وقد بلغت كل هذه غايتها — وما كان الأصحاب ليقفوا مثل هذه

المواقف لو لا ما عهدوا من رسول الله من حسن استقباله للقول الذي يندفع به صاحبه، ما يدفعه إلا الصدق والإخلاص في القول. لقد استقبل رسول الله ﷺ تلك الكلمة بحلمه وعفوه، وتدخل عمر بشدته وبطشه وخفف رسول الله من حدته، وعاد صاحب الكلمة أبي حذيفة نادماً حزيناً وظل يقول حتى استشهد: « والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله عز وجل عني بالشهادة ».

هكذا كانت تربية محمد ﷺ، تربية لروح النقد والصراحة بالحق والجهر به تربية تهدف إلى إنشاء قادة يستطيعون أن يضطلعوا بأعباء القيادة حين تغيب القيادة. وهذه التربية هي القدوة الصحيحة الكاملة للتربية الإسلامية، وكل تربية تبعد عن سبيل هذه التربية تعتبر تربية منحرفة بمقدار ابتعادها.

وفي هذه التربية يشعر كل فرد بأنه مسؤول عن الدعوة الإسلامية حتى ولو كان وحده. وكل فرد مسؤول عن وظيفته الخاصة في الجماعة كما هو مسؤول عن سير الجماعة كلها، ولأدنى فرد في هذه الجماعة أن يقف أمام خليفة المسلمين ليدلي برأيه وليعارض أي رأي أو قول أو فعل يجد فيه خطأ.

ج ـ تربية القادة لا تربية العبيد (١) :

•••منذ أكثر من ثلاثين عاماً حين كانت أكثر البلادالإسلامية ترزح تحت نير الاستعمار الصليبي ، كان السيد محب الدين الخطيب يجاهد بقلمه ويصدر في مصر مجلة اسمها الفتح ـ كانت محرمة في كثير من البلاد الإسلامية ـ وكان من عادته أن يتوج الصفحة الأولى من مجلته بحكمة مأثورة أو حديث شريف ليوقظ العيون النائمة ، وكان من ذلك حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام « أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين الإسلام من قبلك » أو كما قال عليه الصلاة والسلام• ومن ذلك الجملة التالية: المسلمون إلى خير ولكن الضعف في القيادة •• لقد فوجئت بهذه الكلمة ورأيت أنها بلغت أعماق نفسي • إن لدى المسلمين في مجموعاتهم العديدة طاقات هائلة لا تجد من يحسن توجيهها إلى السبيل المؤدية •• وكنت طالباً في كلية أصول الدين في الجامع الأزهر ، وكنت ألاحظ أن هذه الجامعة الكبرى في العالم الإسلامي والجامعات الإسلامية الأخرى ليس في ملكها أن تخرج للمسلمين قادة ولكنها تخرج أناساً عاديين لا يغنون في الشدائد غناء كبيراً •• أين أولئك الذين يتبعون في خطاهم ومسالكهم سيرة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام •

---

(١) محاضرة القاها فضيلة الدكتور محمد امين المصري ـ رحمه الله ـ في صيف عام ١٣٩٦ هـ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وكنت أحسب أن وجود القائد هو القضية كلها • ولقد دفعني ذلك إلى تتبع الموضوع بعض التتبع فقرأت ما يذكر عن معاهد خاصة تنشأ لتخريج القادة ومعاهد أخرى لعباقرة العلم الذين يرجى منهم أن يقودوا الحركة العلمية في مستقبل أيامهم ، ومما يلفت النظر شكوى المشرفين على هؤلاء الطلاب من إفراطهم في الدرس وزهدهم في النوم والراحة ••

وبعد تتبع الموضوع تبين أن القيادة ليست إلا شطر القضية وشطرها الآخر الأمة بمجموع أفرادها ، ولا بد من شروط تتحقق لتتم استجابة الأفراد للقيادة : شروط في القيادة وشروط في الأفراد أنفسهم ، وكل ذلك يؤدي إلى تفاعل متبادل بين الجانبين وإنسجام بينهما ، ويمكن السير في سبيل آخر في التعبير : هنالك إلى جانب القيادة الأولى قيادات أخرى عديدة كقيادة المعلم في غرفة درسه والمدير في مدرسته والأم في منزلها والرئيس في مصنعه ودائرته وعالم القرية في قريته ، وكل هذه القيادات لها أثر كبير في نجاح القيادة الأولى وحسن سيرها • لقد دعا نوع عليه الصلاة والسلام قومه أحقاباً من الدهر وما آمن معه إلا قليل ، أما محمد صلوات الله وسلامه عليه فكان إلى جانب قيادته أفذاذ من الرجال تطأطىء لهم الجباه وتخضع لهم الجبابرة •

لا بد من تمهيد يتم من قبل القيادات الثانوية ، وإن طلاب الجامعات الإسلامية لعلى ثغرة هامة فليتقوا الله في هذه الأمانة •

ولاختيار هذا الموضوع سبب آخر هو أن المسلمين وضعوا موضع القيادة للعالم كلـه ، وطلاب الجامعات الإسلامية أجدر الناس بمعرفة مكانتهم والحرص على استيفاء شروطها ، قـال تباركت أسماؤه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »[1] . وهـذه الميزة تستلزم السمو والتفوق وكل ذلك يؤدي إلى وراثة الأرض والخلافة فيها وقيادة الناس وتصريف شؤونهم . قال الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[2] .

إن المسلمين خير أمة أخرجت للناس ولذلك كانت لهـم قيادة العالم بأسره ، وهم خير أمة لأنهم يحملون خير رسالة وأكرمها إلى الناس جميعاً ، ولقد فهم ربعي بن عامر هذه الرسالة أوضح فهم حين وقف أمام رستم قائد الفرس رسولاً من قبل سعد يدعو إلى الإسلام قبل مناجزة القتال ، لقد قال رستم لربعي إنما أخرجكم من دياركم الجوع ، فقال ربعي : كان ذلك من قبل ولكنا الآن بعد أن بعث فينا محمد ﷺ جئنا لنخرج الناس من عبادة الناس

---

(١) سورة آل عمران ــ الآية ١١٠ .

(٢) سورة النور ــ الآية ٥٥ .

إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام •• إنها كلمة تحمل في ثناياها سنن الرشد كلها وأسس الخير جميعها •

إن مهمة المسلمين إنقاذ الناس من الشرك بأنواعه والوثنية بكل ضروبها وفي ذلك تعود للإنسان إنسانيته وكرامته ، وإن من لا يسجد لله وحده يسجد للناس وللطواغيت يسخرونه ويعبثون به، ويفقدونه كرامته ، فإذا ترك المرء القوانين التي يضعها الطغاة ليستمسك بشرعة الله كانت النتيجة أمرين أولهما : الخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها • وثانيهما : الخروج من أنواع الظلم التي يضعها الإنسان ليستعبد أخاه الإنسان إلى العدل الذي شرعه الله لعباده •

المسلمون خير أمة لأنهم يحملون رسالة الإسلام إلى الناس جميعاً ، ويقول الباحثون النفسيون : إن الفرد الذي يحمل رسالة كريمة هو الفرد المتكامل في شخصيته ، والذي لا يحمل رسالة كالقصبة الجوفاء قلبه خاوٍ وهو لا يعرف معنى للحياة ؟ إنه يشرك العجماوات في تسلط شهواته عليه وتملك غرائزه له ولكنه دونها لأنها تؤدي رسالة هي خدمة الإنسان وإن كانت لا تشعر بها وذاك ليس له رسالة في الحياة •

ويقول الباحثون الاجتماعيون أيضاً دور حمل الرسالة هو دور نهوض الأمة وصعودها ، ودور التخلي عن الرسالة هو دور

الانحدار والهبوط ، ولقد ظل المسلمون يصعدون برسالتهم حيناً من الدهر ثم تخلوا عنها شيئاً فشيئاً فعاشوا فترة يسيرون بقوة الدفعة الأولى ، ثم كان دور الانحدار .

وإنه لأمر خطير جداً أننا نحمل اسم الإسلام ولكننا لا نحمل رسالة الإسلام ، ويدعي الغربيون أنهم حملة الرسالة اليوم وأن رسالتهم رسالة العلم ، ولكن صيحات من أطراف العالم المتمدين اليوم أخذت تدوي في العالم كله تعلن أن هذا العلم فاقد للروح وأنه وسيلة للدمار ، وأن الأنظمة التي وضعها البشر لإسعاد البشر لم تؤد إلا إلى شقائه ودماره . إن المدنية الغربية يئن أصحابها من أنواع الظلمات التي يعانونها وإنهم يطلبون الخلاص ، وإن كثيراً من علمائهم يشيرون إلى بلاد الشرق مهبط النبوات يرجون منها النجاة .. والذي يتاح له أن يزور تلك البلاد لا يعدم أن يصادف كثيراً من الشبان وغيرهم يتلهفون لمعرفة الحقيقةوينشدون راحة لقلوبهم وطمأنينة لنفوسهم . إن فطرهم تبحث عن الإيمان بالذي خلقهم ولكنهم لا يجدون من يهديهم إلى سواء السبيل .

فرسالتك أيها المسلم أن تؤمن بالله وأن تكون عبداً لله وحده لا عبداً لنفسك ، وأن تحقق معنى العبودية لله في قلبك فلا يكون لك في هذه الحياة الدنيا إلا همّ واحد هو : مرضاة الله وابتغاء وجهه ، وأحب أن أقول إنني ما استطعت وقد جاوزت الكهولة أن أحقق هذا المعنى في نفسي ولو كان لي ذلك لشعرت بكثير من

السعادة ولكني مازلت أعالج نفسي وأجد العناء لأني ما أخلصت في عبوديتي ، والمقياس في ذلك أن أطلب ما يطلبه الحق مني دون مبالاة برضا راض أو سخط ساخط . تعال بنا ليسأل الواحد منا نفسه ، ما غرضنا من الحياة ، وما رسالتنا ؟ والجواب أنا نعيش لأنفسنا وأغراضنا ، إن الرسالة التي نقدمها رسالة قاصرة بتراء هزيلة ، وإننا نحن المربين لا نخرج للناس رجالاً ولا نخرج أبطالاً مؤمنين حقاً ، والأسباب عديدة أولها وأكبرها نقص في أنفسنا ويتبع هذا نقص مناهجنا ووسائلنا ، ويلي ذلك الوسط الذي نعيش فيه ويطبعنا بطابعه وينفث فينا سمومه وضعفه ومخدراته..

ولا بد أن تكون الرسالة مهيمنة على القلب ومستحوذة على النفس كلها . ومثال ذلك إنسان هيمن حب العلم على قلبه فهو يعكف عليه عكوفاً ينسيه نفسه ومن حوله وينسيه طعامه وشرابه والملذات التي يطلبها الناس والمتع التي يفرط في السعي وراءها الكبار والصغار . وفي تاريخ العلم أمثلة كثيرة لهذا النوع من العلماء ، ولقد كان الرسل جميعاً من هؤلاء الذين غلبت على نفوسهم فكرة واحدة وهبوها حياتهم كلها وكان المصلحون الذين يتأسون سيرة الأنبياء من بعدهم من هذا النوع : كان صلاح الدين الأيوبي كالوالهة الثكلى فقدت وحيدها ، يتململ في فراشه ويتقلب فيه ولا يجد النوم سبيلاً إلى جفنيه ، كانت الفكرة التي غلبت على قلبه استرداد المسجد الأقصى وانتزاعه من أيدي الصليبيين .

إن الطفل يمتص المعاني التي يستمع إليها من والديه ويشاركهما في انفعالاتهما ، وتترك آهات الأم وحسراتها أثراً كبيراً في نفس الطفل ، وهكذا تتكون المعاني الأولى في قلب الطفل .. ولا يستمع الطفل في البيئة الإسلامية من أبويه أي معنى من معاني البطولة والتضحية والجهاد وأعمال المسلمين في عصورهم الأولى . ولكن الآهات والحسرات في سبيل الشهادات العليا التي تجر وراءها النعم الرغيدة .

كان يجب أن يغرس حب هذه الرسالة في قلب الطفل منذ نعومة أظفاره وذلك حين يستمع إلى أبويه يحدثانه بأخبار الأبطال وسير الرجال كيف جاهدوا وكيف آثروا الرسالة على كل متع الدنيا وكيف أحبوا الاستشهادفي سبيل الله وبذلوا الوسع لإدراكه، ولو كان الأمر كذلك لكان للمسلمين شأن آخر في العالم كله .

وكما يتأثر الطفل بما يسمع من أمه وأبيه يتأثر كذلك بما يسمع من أستاذه ومربيه ويتأثر تأثراً قوياًبسلوك من حوله وقد يعجب بأستاذه فيتقمص شخصيته ويتأثر خطاه ، والمدرسة في مجتمعنا لا تختلف في الروح والجوهر عن المنزل كثيراً ، وليس التنافس في المعاهد العلمية بالأعمال الطيبة والسير الحميدةوالانتاج العلمي الصحيح ولكن بمقدار ما يحفظ الطالب من العلم حفظاً يصدق عليه في الغالب أنه حفظ بلا وعي .

والوسط الذي يعيش فيه الطالب بكل وسائله على الأكثر الغالب معادٍ لكل المعاني المثالية السامية ، وتنيجة ذلك أننا نجد طلاب الجامعات في البلاد الإسلامية بعيدون كل البعد عن حمل رسالة أو تبليغ دعوة إلا من رحم ربك ممن تغلبت فطرهم السليمة على كل العوائق فأرادوا السير ومضوا يتعثرون •

إن الصفة الأولى للقيادة حمل الرسالة وقد امتلأ بها قلب القائد فكان أصدق من يحملها وأخلص من يمثلها وينشأ عن ذلك صفات كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ً - حامل الرسالة يتوجه وجهة واحدة :

صاحب الرسالة إذا هيمنت رسالته على قلبه خضعت غرائزه ودوافعه جميعها لرسالته فهو يغضب ويخاف ويحب أبناءه ويجمع المال ويدخره ويستعلي ويتواضع ، ولكنه يغضب في سبيل رسالته ويخاف من أجلها ويحب أبناءه إذا أعانوه على حمل رسالته ، ويجمع المال لينفقه في سبيل رسالته ويستعلي على أعداء الرسالة ويتواضع لأصحابها • وبكلمة واحدة أصبحت قوى النفس ودوافعها جميعها جنوداً طيعة خاضعة لقيادة واحدة وهذا ما يسمى بوحدة النفس وخلوها من التنازع الداخلي وسلامتها من أنواع الصراع النفسي، وفي مثل هذه الحال يندفع صاحب الرسالة إلى غايته أقوى اندفاع لا يعوقه صراع داخلي ولا يقف في سبيله عقبة في الخارج ، ويتوجه بكل طاقاته إلى غايته كالسهم المريش وبذلك يكون أقوى إنسان تعرفه البشرية •

٢ ـ صاحب الرسالة لا يقر ولا يستقر :

ومثل هذا الإيمان لا يقر صاحبه ولا يستقر ولا يعرف كللاً ولا مللاً ، ولا يطلب راحة ولا هدوءاً • يقول غوستاف لوبون : إن من الخير أن أمثال هؤلاء قلة في العالم ولو كانوا كثيرين لأحدثوا كل يوم إنقلاباً في العالم •

إن صاحب الرسالة تتغير مقاييسه : فالولاء لمن يوالي رسالته والعداء لمن يعاديها والقرب ليس قرب النسب ولكنه القرب من الرسالة ، وبذلك كان حمل الرسالة أقوى عامل في دعم روح الود والولاء بين أفراد الجماعة •

ثم إن حمل الرسالة يحتاج إلى غذاء دائم في الناحية الفكرية والوجدانية والعلمية ، ومن الأخطاء التي تعيش فيها الجامعات الإسلامية أن أبناءها لا يجدون من هذا الغذاء شيئاً ولا سيما الغذاء العملي ، ليس هنالك في الجامعات الإسلامية منهاج عملي للدعوة إلى جانب المنهاج النظري العلمي ، وكان الواجب أن يسير كل إلى جانب صاحبه • يجب أن يجد الطالب في الجامعات الإسلامية جواً خاصاً يرتفع عن الأجواء العامة ، لأن مهمة الجامعات أن تنعكس آثارها على المجتمعات العامة فترقى بها ، وإذا ارتقى المجتمع عاد إلى الجامعات فزاد في الإنفاق عليها والسهر على إصلاح حالها فعاد ذلك على المجتمع بدرجة أخرى من الرقي ••

يجب أن يكون في الجامعات الإسلامية ليال للعبادة والتهجد ، واجتماعات غرضها زيادة الإيمان وجلسات قرآنية تتلى فيها الآيات بفهم وتدبر فتزيد المؤمنين إيماناً ، وجلسات للتذكير بسيرة رسول الله ﷺ والرسل الذين من قبله وجهادهم ، ودعوات منظمة للخروج في سبيل الدعوة إلى الله لا يقل شأنها عن شأن الدراسة. وبكلمة واحدة يجب أن يكون للجامعات الإسلامية طابع خاص وجو خاص تعبق فيه المعاني السامية ، والمثل الإسلامية يذكر فيه الطلاب إذا نسوا وينبهون إذا غفلوا وينشأ لديهم إيمان دافع فعال محرك ليقدموا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله .

٣ ـ صاحب الرسالة لا يزحزح عن مبدئه :

حمل الرسالة ينشىء إنساناً ثابتاً في حمل رسالته لا يحيد عن مبدئه ولا يزحزح عن مكانه ، ولقد كان محمد ﷺ المثل الكامل لذلك . والرواية التي يرويها ابن إسحاق تمثل هذا المعنى أصدق تمثيل حين يقول عليه الصلاة والسلام : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هـذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه . وكذلك شأن عتاب الله لرسوله في قوله تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم »[1] .

---

(١) سورة الكهف ـ الآية ٦ .

٤ـ صاحب الرسالة يشعر بالسعادة الكبرى :

وهذا المعنى ينبثق منه الصبر على الملمات والثبات عند مواجهة العقبات ، وهذا شأن القيادة تصبر على المصائب وتثبت في مواجهة الشدائد صبراً مقروناً بالأمل والثقة بنصر الله ، والطمأنينة إلى تأييده،ويقترن كل هذا بالشعور بالسعادة الكبرى؛ فصاحب الرسالة سعيد وإن كان يسام سوء العذاب ، وهو راض مطمئن النفس وإن أحدق به الجاهلون وأحاط به المستهزئون •

٥ـ صاحب الرسالة ذو بصير بالأمور :

وينبثق عن كل هذا أيضاً دراسة الموقف دراسة كاملة مستوعبة،والإحاطة بالمشكلات التي تعترض سبيل الرسالة،ودراسة الوسائل التي تحقق أغراض الرسالة واكتشاف طاقات الأعوان والأنصار ، ومعرفة مقدرة كل منهم والمجالات التي يحسنون فيها ووضع الأمور موضعها ، إن معرفة الرجال أمر هام جداً ولقد قال عمر بن الخطاب يثني على أبي بكر رضي الله عنهما : « رحم الله أبا بكر كان أعرف مني بالرجال » ،قال هذه الكلمة عمر رضي الله عنه حين عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه عن القيادة فقاتل خالد جندياً ، وفي معركة من المعارك فتح خالد قنسرين هو وثلة من أصحابه بمعجزة حربية ، فلما بلغ ذلك عمر رضي الله عنه قال كلمته:«أمّر خالد نفسه رحم الله أبابكر كان أعرف مني بالرجال» •

هذه بعض صفات القائد التي تنبثق عن صفة أولى هامة أساسية : هي حمل الرسالة ، رسالة العقيدة والإيمان • وهنالك

صفة هامة أخرى تنبثق أيضاً عن هذه الصفة وتلزمها تفرد بالذكر لأهميتها وهي : تربية الأفراد تربية تؤهلهم للقيادة ، وبتعبير آخر تربية روح الثقة وحمل المسؤولية في الأفراد جميعاً ولا سيما الذين يحيطون بالقيادة ويرجى منهم الاضطلاع بأعباء القيادة إذا فقدت القيادة الأولى •

ونشير هنا إلى أن التربية الحديثة والأنظمة الحديثة تذكر نوعين من تربية الأفراد :

الأولى : مآلها الفاشية والنازية والشيوعية • وتشترك هذه في وجود حاكم واحد وحزب واحد • وتبني هذه الأنظمة فلسفتها على أن مصالح الفرد مهددة في سبيل الجماعة ويربى الأفراد ههنا على التبعية التامة والطاعة العمياء • وتستغل طاقات الأفراد جميعها في الاتجاه الذي يختاره الحزب الحاكم ويحاط الرئيس بهالة من القداسة فلا ينتقد ولا يعارض لأنه في نظر اتباعه لا يخطىء؟

والنوع الثاني من التربية : ينعته أصحابه باسم التربية الديمقراطية ويدّعون أنهم يتيحون في نظامهم الفرص المتكافئة للأفراد جميعاً وأنهم يربون أبناءهم على الثقة بالنفس والاعتداد بها وتنمية المواهب حتى تبلغ أقصى حد يمكن أن تبلغه ، وفي هذه التربية يختار الأفراد مصيرهم والمجال الذي يعملون فيه ، وتدعى هذه التربية بعد هذا كله أنها مع مراعاتها لحرية الأفراد تنشئهم على مبادىء الجماعة وتستغل طاقاتهم في سبيل الجماعة وتحدث

الانسجام التام بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة كيلا تطغى إحداهن على الأخرى .

وليس موضوعنا انتقاد كل من هذين الاتجاهين وبيان الواقع في كل منهما ولكنا مهدنا بما ذكرنا لنبين أن القيادة الإسلامية بعيدة أشد البعد عن التربية الأولى التي تنشىء أتباعاً عبيداً والتي تغلو في تعظيم القائد فتعطيه ما ليس له ثم تقتل في الأفراد روح الثقة بالنفس والاضطلاع بحمل المسؤولية .

لقد كان محمد ﷺ يكره أن يمتاز بشيء عن أصحابه وكان أصحابه رضوان الله عليهم لا يقومون له إذا دخل عليهم لما يعلمون من كراهته لذلك .. وكان يربي أصحابه على الجرأة في قول الحق والصدع به وكان عليه الصلاة والسلام يعيد على مسامع أصحابه أنه بشر يرضى ويغضب ويخطىء كما يرضى البشر ويغضبون ويخطئون .. ويقول لأصحابه : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ؛ ولكن قولوا : عبد الله ورسوله .. » . ولقد قرأت فيما قرأت لبعض المستشرقين كلمة يثني فيها على محمد بن عبدالله عليه صلوات الله وسلامه ويقول : كان محمد أشد ذكاء من الرسل الذين سبقوه ولعله أفاد من تجربتهم ، فلقد كان يبدىء ويعيد أنه بشر كيلا يقع أصحابه في تأليهه كما سبق ذلك لعيسى عليه صلوات الله وسلامه .

ليس الغلو في التعظيم للقيادة مما أتى به محمد ﷺ، ويحسن أن نفرق بين حب القائد واتباعه وطاعته واحترامه ، وبين الغلو في تعظيمه تعظيماً يمنحه نوعاً من القداسة والعصمة ، إن الاتجاه الأول محمود مطلوب ، والثاني مذموم مردود .

لقد كان محمد ﷺ في شتى المناسبات يدرب أصحابه على حمل المسؤولية ليضطلعوا بأعباء القيادة من بعده، فكان يستشيرهم في كل مناسبة وكثيراً ما يعدل عن رأيه إلى رأيهم لأن في رأيهم صواباً :

ففي غزوة أحد أقعد ببعض أصحاب رسول الله ، حينما نادى مناد بأن محمداً ﷺ قد مات ، ومرّ بهؤلاء أنس بن النضر فقال ما يقعدكم ؟ قالوا : مات رسول الله ، فقال لهم : قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ، ونزل بعد ذلك قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين »(١) . وكانت الآية الكريمة عتاباً أليماً للأصحاب الذين تخلوا عن حمل المسؤولية بعد موت القائد وهي تهيب بهم أن يفعلوا كما فعل أنس رضي الله عنه ، والآية الكريمة تنادي كل مسلم أن يقوم بحمل الرسالة ولو لم يبق على ظهر الأرض غيره .

---

(١) آل عمران ــ الآية ١٤٤ .

وفي غزوة بدر ترك ﷺ رأيه لرأي الخباب بن المنذر حين قال له أهذا منزل أنزلكه الله يارسول الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : بل هو الرأي والحرب والمكيدة فقال الحباب ما هذا بمنزل • وفي غزوة الأحزاب يوشك عليه الصلاة والسلام أن يعقد صلحاً مع بني غطفان على ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا عنها ، ولما استشار عليه الصلاة والسلام سعد بن معاذ وسعد بن عباده ، سألاه : أهو وحي أم شيء يحبه عليه الصلاة والسلام ؟ أم هو تدبير الحرب ؟ فلما علما أن الأمر من تدبير الحرب قالا : والله لا نعطيهم إلا السيف فسره ذلك عليه الصلاة والسلام ورجع إلى رأيهم ••

وهناك أمثلة كثيرة في سيرته عليه الصلاة والسلام وسيرة أصحابه ونستخلص منها نتائج ثلاث :

١ ــ عدم الغلو في تعظيم القائد وعدم اعتقاد العصمة له •

٢ ــ رسول الله عليه صلوات الله وسلامه بشر له صفات البشر غير أنه يوحى إليه ••

٣ ــ على القائد أن يدرب أتباعه على حمل المسؤولية في حياته ومن بعده ، ولذلك يستشيرهم ويرجع إلى رأيهم إذا كان صواباً ولا يمتاز عنهم بميزات خاصة ••

ولكن ــ بكل أسف ــ انحرف المسلمون عن المعنى الذي ربى رسول الله ﷺ عليه أصحابه : الجرأة في الحق وإعلانه

والصدع بـه بصدق وإخلاص ، وكان العهـد الذي أخذ على الأصحاب في بيعة العقبة الكبرى أن يقولوا بالحق حيثما كانوا لا يخشون في الحق لومة لائم . وحين كمت الأفواه وأصبح المسلم يخشى أن يقول كلمة الحق تودع من الأمة ، وانتهينا اليوم إلى أحد رجلين معارض وقح لا يريد الحق ولا يبتغي الخير ، أو موافق مراء مصانع يقول بلسانه مالايعتقد بقلبه . أما الصنف الثالث : فقد أصبح نادراً جداً .

د ـ حمل المسؤولية :

قال تعـالى : « **كنتم خير امـة اخرجت للناس ، تامـرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن اهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون** » (١) .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله : « شطر هذه الآية يضع على كاهل الجماعة المسلمة في الأرض واجباً ثقيلاً بقدر ما يكرم هذه الجماعة ويرفع مقامها ، ويفردها بمكان خاص لا تبلـغ إليـه جماعة أخرى » .

يريد عليه رحمة الله أن التبعات التي تقع على خير أمة أخرجت للناس تبعات كبيرة جـداً فهي التي تحمل لواء الكفاح لتصلح الدنيا كلها ولتحدث انقلاباً في العالم كله تحوله من ضعفه وشروره وآثامه وتعلقـِه بأوهامه إلى عالم يؤمن بالله ويعمل للخير تسوده العدالة وتشيع الرحمة بين جنباته .

---

(١) آل عمران ـ الآية ١١٠ .

ويقول عليه رحمة الله في قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » : « هذا ماينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة ولتكون لها القيادة لأنها هي خير أمة ، والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض ، ومن ثمّ لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية إنما ينبغي لها دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها ... » وفي أول مقتضيات هذا المكان أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد ... وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهي خيرُ أمة أخرجت للناس لا عن مجاملة أو محاباة ، بل هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر وإقامتها على المعروف مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر ...

فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة ، بكل ما رواء هذه التكاليف من متاعب وبكل ما في طريقها من أشواك إنه التعرضُ للشر والتحريضُ على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد وكلُ هذا متعب شاق ولكنه ضروري لاقامة المجتمع الصالح وصيانته ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة ..

قال سيد قطب : « شطر الآية يضع على كاهل الجماعة في الأرض واجباً ثقيلاً » ، وشطر الآية هو قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وهذا الشطر فيه جانبان : جانب الوصف . والجانب الثاني

يتضمن الشرط الذي لا يتم الوصف إلا به • فلا يتم لهذه الأمة كونها خيرَ أمة أخرجت للناس إلا إذا تم لها شرطُ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر بعد الإيمان • وقد ذكر هذا سيد قطب عليه رحمة الله واضحاً جلياً ، قال : « أما هنا فقد وصفها الله سبحانه بأن هذه صفتها ليدلها على أنها لا توجد وجوداً حقيقياً إلا أن تتوافر فيها هذه السِمة الأساسيةُ التي تعرف بها في المجتمع الإنساني ، فإما أن تقوم الأمة بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله فهي موجودة مسلمة وإما ألا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة وغير متحققة فيها صفة الإسلام » •

الآية الكريمة تصف الأمة الإسلامية بكونها خير أمة أخرجت للناس إذا تحققت لها شروط الجماعة المسلمة ، أفتكون خيرَ أمة أخرجت للناس إذا لم يتحقق لها ذلك ؟ ثم إن الله تباركت أسماؤه لم يخاطب بالإسلام أمة للعرب وحدها ، ولكن النداء إلى الإيمان بالله يوجه إلى الناس جميعاً ، وإن الدولة الإسلامية هي دولة فكرية عقيدية ، أفرادها المقيمون في ديار للدولة الإسلامية والوافدون عليهم والمهاجرون إليهم من أي قطر أو بلد الذين قبلوا فكرتهم وآمنوا بعقيدتهم كل هؤلاء يصبحون سواء في الاعتبار الإنساني والحقوق المدنية ، وهذا ما تم في الدولة الإسلامية ولم يتم من قبل ولا من بعد لأية دولة ولا لأية فكرة • إن العقيدة

في الإسلام معروضة على كل إنسان بحكم إنسانيته أياً كان موطنه وأية كانت عشيرته ... وإن الدولة الإسلامية دولة مفتوحة لا تغلق نفسها على جماعة معينة ولم يتم ذلك لغيرها في التاريخ كله .

شطر الآية الكريمة يضع على كاهل الجماعة المسلمة في الأرض واجباً ثقيلاً ، ولذا كان شطرها الثاني دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان .

قال تعالى : **« ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم »** (١) . وتسجل الآيات الكريمة الحقيقة في شأنهم : الخير فيهم قليل والشر غالب عليهم قال تعالى : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » ثم بين تباركت أسماؤه أن أمرهم يسير وشأنهم حقير وأن الذلة ضربت عليهم والهوان أحاط بهم إلا إن دخلوا في ذمة الله وذمة المسلمين والتجؤوا إليهم .

قال تعالى : **« لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »** (٢) .

هذا شأن المسلمين وهذا شأن أعدائهم ، ولا نيأس من رَوْح الله فإنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الفاسقون .

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) آل عمران : ١١١ ــ ١١٢ .

تبليغ الدّعوة

قال تعالى : ((**قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين**)) (١) .

بينت الآية الكريمة بكلمة واحدة طريقة الرسول عليه صلوات الله وسلامه ومنهاجه وشرعته (هذه سبيلي أدعو إلى الله).

والدعوة إلى الله تنطوي على الإيمان بالله ، فهي : إيمان ودعوة.ولكن هذا الإيمان ليس إيماناً كإيمان الناس اليوم ، ولكنه إيمان بلغ الغاية في قوته وخصبه ونمائه يملأ شغاف القلب ويبلغ حبات الفؤاد ويستحوذ على جنبات النفوس ويغلب على قلب المؤمن وعقله وضميره وإرادته ، فلا يرى صاحبه في الكون كله من أمور الدنيا أمراً عظيماً يأخذ بلبه لأن صوتاً يناديه من أعماق قلبه يقول له : « الله اكبر » .

هذا الإيمان الذي وصفه ما ذكرت ، ليس إيمان خمود وانزواء وتبتل وانقطاع فذلك ليس من شرعة الإسلام ، ولكنه إيمان عمل وحركة واندفاع في الدعوة إلى الله ، وليس هذا الإيمان رهبانية ابتدعها أهل الكتاب تدعو إلى ترك الدنيا و...

(١) سورة يوسف ـ الآية ١٠٨ .

الناس ، ولكنه ربانية" تدعو المؤمن إلى بذل نفسه وماله في سبيل الذي خلقــه .

وهذا الإيمان يتجلى بالدعوة إلى الله حتى تكون الدعوة إلى الله أحب إلى المؤمن من ماله ونفسه التي بين جنبيه ، والدعوة إلى الله هي الجانب العملي للإيمان والثمرة الفعلية والنتيجة اللازمة.

ولأضرب مثلاً يوضح ما أقول :

الإيمان شبيه بالقوة الكامنة في الجهاز المحرك لطائرة المحرك لطائرة أو سيارة ، فإذا ادعى مدع أن هذا الجهاز أعني المحرك الذي لا يعدو أن يكون عشر معشار حجم الطائرة ، يستطيع أن ينطلق لتنطلق بانطلاقته السيارة فتقطع المسافات الشاسعة ببرهة يسيرة وتقلع بقوة دفعه الطائرة فتحلق في السماء وتجوب أجواء الفضاء ... لم نصدق كل ذلك ما دامت السيارة ثابتة والطائرة مستقرة على وجه الأرض .

إن قوة المحرك تظهر للعيان بسبح الطائرة في أجواء الفضاء. وكذلك قوة الإيمان تتجلى بسبح صاحب الإيمان في أجواء الدعوة إلى الله . والدعوة إلى الله مهمة الرسل في سبيل إصلاح المجتمعات الإنسانية .

إن محرك الطائرة الذي لا يستطيع أن ينطلق بالطائــرة ، يحكم عليه بأنه قد أصابه خلل يسير أو كبير ، وإن الإيمان الذي لا يحرك صاحبه ليدفعه إلى السير في سبيل الدعوة إلى الله هــو إيمان هامد خامد قد أصيب بخلل يسير أو كبير .

وإن الإيمان الذي يحمل صاحبه إلى سبيل الدعوة إلى الله إيمان قد اقترن بحمل رسالة يعيش صاحبها من أجلها ويناضل في سبيلها ويموت لتحيا .

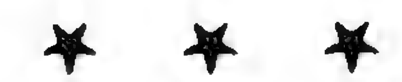
أما الإيمان الذي لا يحمل صاحبه على الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله، فهو إيمان خلا من معنى حمل رسالة الإيمان .

ولقد أعلم الله جل شأنه رسوله بأن رسالته تتلخص بكلمة واحدة : هي الدعوة إلى الله ووصفت هذه الدعوة في كتاب الله بصفات ثلاث : أولها أنها دعوة قائمة على بصيرة أي حجة واضحة ويقين يتميز به الحق من الباطل ، فهي دعوة تعرفها الفطر الطيبة السليمة وتوقن بها العقول المستنيرة . والصفة الثانية : أنها ليست قاصرة على الرسول عليه صلوات الله وسلامه وحده ، ولكنها دعوته ودعوة كل متبع لهديه مقتد بسنته ، وهكذا كان المجتمع الإسلامي مجتمعاً يحمل أفراده جميعاً رسالة واحدة يشرون أنفسهم في سبيلها . والدعوة إلى الله رسالة المجتمع الإسلامي كله، وهي السبيل التي أدت إلى انتزاع أصحاب رسول الله من الجاهلية ليكونوا مجتمعاً مسلماً حمل أفراده الرسالة بعينها فبلّغوها العالم بأسره وانتزعوا الدنيا كلها من حماة الجاهلية .

والصفة الثالثة لهذه الدعوة : أنها تنابذ الشرك منابذة تامة ، ولا تهادنه أية مهادنة بل تريد القضاء عليه قضاء مبرماً .

ولقد غفل المسلمون اليوم عن رسالتهم فعاد الناس إلى جاهليتهم وشركهم ووثنياتهم ، وليست وثنية اليوم أحجاراً تنحت ولكنها نظريات وفلسفات تجحد الخالق جل شأنه وتدعو إلى عبادة القوم تارة وعبادة المادة تارة وعبادة الانسان تارة أخرى .

غفل المسلمون عن رسالتهم وتركوا القيادة لأناس يسوقهم الشيطان من خلفهم ويقودهم الهوى من أمامهم ، واستذِلَّ المسلمون وخنعوا وأضاعوا النور الذي أنزله الله وَوَجدت النظريات الخاسرة سبيلاً إلى عقول كثير منهم وزُيّن لكثير من المسلمين الجمعُ بين الحق والباطل على صعيد واحد ، وبين الكفر والإيمان في دائرة واحدة ، وذلك هو الضلال بعينه ، إن أية فلسفة أو نظرية تُغاير الإسلام وتُتخذ مبدأ فهي شرك ووثنية وعبادة لغير الله ، وإن كل نظرية ــ من النظريات الضالة ــ تحاول تفسير الإسلام في ضوء مبادئها وإخضاعه لأسسها ، هي محاولة ما كرة كاذبة ليست من الإسلام ، وليس الإسلام منها . وواجب المسلمين تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس جميعاً بكل وضوح وبيان ليكون الناس على بصيرة من أمرهم وليحيى من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة .



الاعتزاز بالإسلام

ومن المبادىء في كتاب الله الاعتزاز بالإسلام وحمايته .. لا اعتزاز بلا حماية ولا حماية بلا اعتزاز .

قال تعالى : ((**كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن اهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون**))(١) .

غرض كتاب الله إقامة دعائم المجتمع الإسلامي على أسس قويمة وهي : الإيمان بالله وحده جل شأنه ، وربط أفراد المجتمع بأقوى الوشائج وأوثق العرى ، وتنمية شعور الأفراد بالاعتزاز بمجتمعهم ، والسعادة الكبرى بالانتماء إلى أمتهم الإسلامية وقيام المجتمع الإسلامي في وجه المجتمعات الأخرى ،وهو عزيز جانبه مخوف بطشه .

والآية التي تليت بلغت الذروة في المعاني التي ذكرت عزة المؤمنين وذلة الكافرين . ولكن آيات الكتاب الحكيم لا تسرد الدعاوى سرداً ، ولا تبجح بالافتخار تبجحاً ، ولكنها إذ تقول للمؤمنين إنهم خير أمة أخرجت للناس ؛ تأتي بالدليل القاطع والبرهان الناصع .

---

(١) آل عمران : ١١٠ ــ ١١١ .

إن الشرط الذي يجعل الأمة في الذروة من قوتهـا ، أن يجتمع أفرادها على قلب رجل واحد وأن يباعدوا بينهم وبـين أسباب الفُرقة جميعها ، وأن يكون اجتماعهم على حق لا على باطل فإن الباطل لا يلبث أن يفرق أصحابه ، وأن يشعر الأفراد بمكانة العقيدة ـ التي اجتمعوا عليها ـ وسموها وقوتها ، وضعف العقائد الأخرى التي تعاديها ، وأن يشعر الأفراد أن لهم رسالة يجب أن يؤدوها إلى المجتمعات التي تحيط بهم والعالم كله ، وكل هذه المعاني تضمنتها الآيات الكريمة التي سبقت الآية التي تلوناها وقد جاء فيها التحذير من طاعة اليهود والنصارى والتحذير من التفرقة ، والأمر بالاعتصام بالله في سبيل النجاة . وهذه الشروط ضرورية لسلامة المجتمع وبقاء وحدته .

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاًولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١) .

---

(١) آل عمران : ١٠٠ ـ ١٠٤ .

وإن الآيات الكريمة قد ذكرت شرطاً هاماً جداً لضمان هذه الشروط جميعها هو : وجود جماعة منظمة في المجتمع الإسلامي تسهر على شؤونه وترعى فيه أحكام الله وأوامره ونواهيه .

قال تعالى : **« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » (١) .**

ولكل ما سبق كانت هذه الجماعة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر من أكبر العوامل في حفظ وحدة الأمة وقوتها وحمايتها من كل فرقة وكل ضعف أو خلل .

إن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس لسبب واحد لخص بقوله تعالى : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . في حين وُصفت المجتمعات الأخرى بقوله تعالى : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »(٢)، ووصف أفراد المجتمع الإسلامي بقوله تعالى : « وتؤمنون بالله » ووصف المجتمعات الأخرى بقوله تعالى : « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً »(٣) .

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .

(٢) المائدة : ٧٩ .

(٣) النساء : ١٥٠ ـ ١٥١ .

كان الإيمان بالله جل شأنه إيماناً كاملاً بكل ما نزل على محمد عليه الصلاة والسلام قوام المجتمع الإسلامي ، وكان الشرط الضامن لسير المجتمع الإسلامي كما يريد له هذا الإيمان وجود جماعة فيه تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وبهذين الركنين الأساسيين كان فخار الأمة الإسلامية واعتزاز أفرادها . وبهذين الركنين كانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس .

وهذا الاعتزاز المقترن بالإيمان بالله ، هو الاعتزاز الحقيقي الذي لا تشوبه شوائب الكبر ولا العجب أو أي معنى من معاني الجاهلية ، وهذا الاعتزاز صحيح قائم على أسس سليمة ، لذا يرجى خيره ويؤمن شره وهو قوة دافعة للمؤمنين لحمل رسالتهم إلى العالم كله والناس أجمعين ، وهم يرون أن الله اختارهم من بين الناس جميعاً لحمل هذه الرسالة ، وندبهم من بين الأمم جميعها لأداء هذه المهمة ، ولا يخشى أن يصيبهم الأشر أو البطر أو الأمراض التي تصيب المجتمعات الجاهلية لأن تعاليم دينهم كافلة بردهم إلى الإعتدال والتضامن والخضوع للذي خلقهم ، والرأفة بعباده .

ولئن قامت اليوم دعوات تدعو إلى الاعتزاز بالأمة والقوم ومنشأ الأمة وأصلها ، ولئن ذهبت هذه الدعوات الضالة إلى الاعتقاد بأن أمتها خير الأمم لأنها انحدرت من أصل كذا وكذا ،

فالأمة الإسلامية تعتز بالعقيدة التي اعتنقتها والإيمان بالله الذي اجتمعت عليه والتزام أفراد مجتمعها التعاليمَ التي نزلت من عند الله ، وترى أن عباد الله جميعاً متساوون لا فضل لعرق على عـرق ولا لدم على دم •

والأمة الإسلامية لا تعتز بجاهلية مهما عظم بلاؤها ، ومهما امتدت حضارتها ذلك لأنها ترى أن كل حضارة لا تعتمـد على الإيمان بالله ، حضارة كاذبة مآلها إلى الشر والدمار •



حمايـــة الدّعوة

١ ـ مفهوم الجهاد الأكبر :

روى البخاري في صحيحه : أن رجلاً قال : يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد . قال : « لا أجده » . ثم قال : « هل هل تستطيع إذاخرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر ؟ » . فقال : ومن يستطيع ذلك ؟ ..

ولو أردنا تقصي آيات القتال في سبيل الله وأحاديث القتال لما وسعنا الزمن ... وبعد هذا كله يسمى قتال العــدو جهــاداً أصغر ، ويروون في ذلك حديثاً يذكره الخطيب في تاريخه من طريق يحيى بن العلاء قال : حدثنا ليث عن عطاء بن أبي رباح عن جابر . قال : قدم النبي ﷺ من غزاة له فقال لهـم رسول الله ﷺ « قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه » . وقال البيهقي بشأنـه : إسنــاده ضعيف ، وتبعه العراقي في تخريجه الأحياء . وحكم السيوطي أيضاً بضعفه في جامعه الصغير . ولكنا حين نرجع إلى كتب التراجم لنعرف من هو يحيى بن العلاء راوي الحديث ، نجد في ترجمته ما يزهدنا في حديثه وما يحملنا على هجر ما يرويه .

يقول ابن حجر في شأنه في التقريب : رمي بالوضع أي أنه اتهم بوضع الحديث • أما الذهبي فيقول في ميزانه ، قال أبو حاتم: ليس بالقوي ، وضعفه ابن معين ، وقال الدارقطني : متروك ، وقال أحمد بن حنبل : كذاب يضع الحديث • وبعد هذه الشهادات التي تتلوها بشأن هذا الرجل يجب أن نلفت الأنظار إلى أن هذا الحديث برواية هذا الرجل لا تجوز روايته ولا ذكره على سبيل التنبيه إلى أنها رواية متروكة ساقطة •

والرواية التي ذكرنا تعارض الآية الكريمة معارضة صريحة • قال تعالى : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً • درجات منه ومغفرة ورحمة • وكان الله غفوراً رحيماً »(١) • وسنعرض بشيء من التفصيل إن شاء الله لبعض ما اشتملت عليه الآية الكريمة • أما في حديثنا هذا فنريد أن نبين بأن الجهاد بمعنى قتال الأعداء هو ثمرة الإيمان والغرض من العبادات ومجاهدة العبد هواه •

وإن كثيراً من الناس ينسون أن الأمور بمقاصدها فإذا أدت الوسائل إلى غاياتها كانت وسائل حقيقية ، وإذا لم تؤد كان فيها نقص وخلل • والغرض من العبادة تربية النفس ورياضتها ،

---

(١) سورة النساء ــ الآيات : ٩٥ ــ ٩٦ •

زيادة الإيمان وقوته وهيمنته على القلب ؛ وتتيجة هذا بيع النفس في سبيل الله . وهكذا فالجهاد ثمرة العبادة وثمرة الإيمان ، والجهاد مقياس العبادة ومقياس الإيمان . فمن عبد الله حق عبادته هان عليه تقديم نفسه وماله .

أما الدعاوى وحدها فهي رخيصة هينة ، ولذلك كان لا بد لكل دعوى من ميزان عملي توزن به ، فإذا ادعى مدع أنه يحب الله ورسوله ثم وجد غصة في بذل درهم في سبيل الله فدعواه كاذبة ، وإذا ادعى مدع بأنه مشتغل بالجهاد الأكبر وتربية نفسه ومجاهدة هواها ثم عز عليه أن يسير خطوة يعفر فيها قدميه في سبيل الله فدعواه كاذبة .

وقد لفت القرآن انظار المؤمنين إلى هذه الحقيقة وبين لهم أن تمني الموت في ساعة الأمن أمر هين ، فإذا جد الجد وجب الوفاء والالتزام . قال تعالى معاتباً المؤمنين : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون »[1] .

فالميزان والمحك ومكان الاختبار وميدان الامتحان هو : ميدان الجهاد ، ميدان بذل النفس والمال . بمعنى أن من كان يدعي أنه مشتغل بمقاومة هواه وتربية إيمانه ، فلا بد من أن يتقدم إلى امتحان ؛ فإن اجتازه بنجاح فهو من الصادقين وإن لم يتجاوزه فليعلم أن دعواه كاذبة وأن اشتغاله بمحاربة هواه اشتغال غير حقيقي .

---

(١) آل عمران : ١٤٣ .

وإن الكثرة الغالبة من المسلمين اليوم ومنذ أعصر ودهور ، يدعون أنهم في جهاد أكبر وفي مجاهدة نفوسهم وأهوائهم ، والشدائد تقع بالمسلمين ويحاط بهم وتستعمر ديارهم وتسلب أموالهم ويعذب أبناؤهم ، ولايقدم هؤلاء المشتغلون بجهادهم الأكبر نقيراً ولا قطميراً • ورحم الله الذي سمى عبادة الصادقين هؤلاء لعباً ، إنه عبد الله بن المبارك الذي كان لا يدع الغزو في سبيل الله ولقد مات منصرفاً من غزو الروم ، كتب إلى صاحبه الفضيل بن عياض وكان الفضيل صادقاً في عبادته وكان ينصح الملوك فيبكيهم ولا يطمع في عطائهم ومع ذلك كتب إليه عبد الله ابن المبارك قال له حين هاجر الفضيل إلى مكة للعبادة وقد مات فيها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لرأيت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب

••• وهكذا سمى عبد الله بن المبارك عبادة الفضيل لعباً ، ولم يسميها جهاداً أكبر •

إن جهاد النفس والهوى إذا لم يؤديا إلى إقامة دعوة الحق والجهر به والوقوف بجانبه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النفس والمال في سبيل الله فهو جهاد ناقص فيه خلل •

ومن العجب أن تسمى ساعة الامتحان وساعة الشدة التي تزلزل فيها الأقدام وتبلغ القلوب الحناجر تسمى بساعة الجهاد الأصغر وساعات الأمن والطمأنينة في الديار الآمنة بين الآل والأصحاب بساعات الجهاد الأكبر •

وبمثل هذه التسمية يفرح المخلفون بمقعدهم عن اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه ويجدون لأنفسم راحة وطمأنينة ، وما هي إلا خدعة النفوس الضعيفة وعكس القيم الصحيحة •

وقد يقال إن الغرض من الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه في سبيل تربية الإيمان وتطهير النفس من أدران الشرك • وهذا الذي أشارت إليه الأحاديث الكثيرة حين سئل رسول الله عن أحب الأعمال فقال: «الصلاة على وقتها ثم بر الوالدين ثم الجهاد•» وسئل عليه الصلاة والسلام أي العمل أفضل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « الإيمان بالله والجهاد في سبيله • » •

وليس من شك في أن تربية الإيمان أكبر من كل أمر ولكن ما الوسائل لتربيته ؟ نذكر من هذه الوسائل ما يلي :

١ ـ القرآن الكريم وله من الأثر ما لا يمكن أن يكون لسواه فهو كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الذي تخشع له القلوب وتدمع له العيون •

قال تعالى : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » • (المائدة : ٨٣) •

وقال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .. » (الزمر : ٢٣) .

وقال تعالى : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » (الرعد : ٣١) .

وتربية القرآن مآلها أن تستقر معاني التوحيد في قلب العبد فيؤمن أنه لا خالق إلا الله ، ولا رازق إلا الله ، ولا مالك إلا الله ، ولا يستحق العبادة إلا الله ، وأن ينزع برجائه من كل مخلوق ويجعل تمام رجائه بالله وحده .. وهذا المعنى يوثق صلة العبد بربه فلا يخشى سواه ولا يرجو غيره . فإذا تحقق العبد بهذه المعاني لم يرهب ذا سلطان ولم يخش جباراً ، ولكنه يصبح عبداً لله .

٢ً ــ ومن أقوى وسائل التربية دراسة سيرة الرسول عليه صلوات الله وسير الأنبياء من قبله وقد تكفل القرآن الكريم بذلك أيضاً . ومن اللفتات الكريمة أننا نقول في كل ركعة في صلاتنا : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم » ، والذين انعم الله عليهم جل شأنه هم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ، ولقد كانت أكبر ميزاتهم دعوة الناس إلى عبادة الله وتحمل الأذى في سبيل ذلك .

٣ً ــ ومن أقوى وسائل التربية الإيمانية أيضاً : وجود الفرد في جماعة مؤمنة ، ولقد فرض الرسول عليه الصلاة والسلام علينا

ذلك فقال : « عليكم بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد ، ومن خرج من الجماعة فقد نزع ربقة الإسلام من عنقه » .

والجماعة تبعث في الفرد روح الثقة والأمل وتنشىء منه إنساناً غير الذي كان .

٤ – وبعد كل هذه الوسائل واقواها العمل الصالح، والإيمان الذي ليس له ثمرة من العمل هو إيمان خامد هامد ، ولقد قال السلف رضوان الله عليهم : الإيمان يزيد وينقص ، الطاعات تزيده والمعاصي تنقصه .

فالعمل الصالح خير ما يزيد الإيمان قوة ورسوخاً .

٥ – ومن العمل العبادة، ورأس العبادة الصلاة، وهي الفارق بين الإيمان والكفر ، إذ كيف يعقل أن يدع الذي آمن بالله جل شأنه السجود للعلي الأعلى إلا أن يكون إيمانه بمنتهى الضعف والرقة ومنتهى الابهام والغموض وهو إيمان مشوب بكثير من الخطأ والانحراف ممتزج بالشك والهزل والهزء ولذلك عده الامام أحمد كفراً صريحاً مسايراً صريح ألفاظ الحديث .

والعبادة منشؤها الإيمان ، فلولا الإيمان لما كانت عبادة ولكن العبادة تعود إلى الإيمان فتزيده قوة وخصباً ونماء ، فإذا ازداد الإيمان ازدادت العبادة ، وإذا ازدادت العبادة ازداد الإيمان وهكذا . وذروة الأعمال الصالحة الجهاد في سبيل الله لإقامة الحق والدعوة إليه ، وليس من شك أن المؤمن القوي الإيمان هو الذي

يصدع بالحق ، ويحتمل الأذى في سبيله ويعيش لتكون كلمة الله هي العليا وهذا المؤمن خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف الذي يريد أن يعبد الله ولا يقوى على احتمال أذى في سبيله .

وهذا هو ثمرة الإيمان ، وهو يعود على الإيمان أيضاً فيزيده قوة ونماء .

إنه ليس من شك أن أعلى درجات الجهاد ذلك الجهاد الذي تتميز فيه النفوس ، وهذا هو الذي فعله محمد عليه الصلاة والسلام حين فتح عيون الناس على الإيمان بالله وشرح الله صدورهم لذلك فعرفوا للحياة معنى غير الذي عرفوه من قبل . لقد أصبح معنى الحياة عندهم أن يخرجوا الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن عبادة بعضهم بعضاً إلى عبادة الله . هذا التغيير تغيير فعلي ، ولذلك ظهرت ثمرته في العمل بأسرع مايمكن ، ولم يكن العمل منفكاً عنه بحال .

وهكذا كان الجهاد العملي لدى المسلمين الأولين مقترناً بالجهاد النفسي لم ينفك عنه لحظة واحدة . وهكذا كان الجهاد العملي وسيلة لقوة الإيمان ونقائه وتمحيصه ، يشهد بذلك قوله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » (آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١) .

يروي الخطيب البغدادي في تاريخه عن جابر رضي الله عنه قال : قدم النبي ﷺ من غزاة له فقال لهم رسول الله : « قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه » • وقد ذكرنا أن الحديث من رواية يحيى بن العلاء وقد وصفه أحمد بن حنبل بقوله كذاب يضع الحديث ولذا فإنه لا تنهض به حجة ،وعلى رغم ذلك يأخذ المناوي في شرحه وتبيان معانيه • وفي ظني لو أن علماء المسلمين طرحوا الأحاديث التي لا تنهض بها حجة فلم يعرجوا عليها ولم يذكروها إلا للتنبيه على ضعفها ونكارتها ، كما ذكر علماء الحديث لكان ذلك أهدى وأقوم قيلاً • ولما كان هنالك سبيل إلى انتشار تلك المعاني الهزيلة الضعيفة في عقول المسلمين ،ولما وقعت تلك الانحرافات في مفاهيم الإسلام ، إنه ليكفينا أن نأخذ بآيات الكتاب البينات وبأحاديث رسول الله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ الصحيحة الواضحة البينة التي قال فيها عليه الصلاة والسلام « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك ، ومن يعش منكم فيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهتدين الراشدين » (رواه أبو داود والترمذي) • وقال حديث حسن صحيح وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل وابن ماجه وقال الحافظ أبو نعيم هو حديث جيد ولم يتركه البخاري ومسلم من جهة إنكار منهما له •

والحديث الذي نحن بصدده ـ حديث قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ـ حديث واهٍ ولكن قلَّ من يعلم ذلك، وكثير من العلماء الأفاضل يدافع عنه ويرى أن معناه صحيح على الرغم أنه يعارض بوضوح قوله تعالى : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلاً وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً »[1] . وكثير يرى أن أمثالي لم يدركوا معناه لأنه يحتاج إلى تأويلات عميقة وفلسفات دقيقة ولست ألح على الموضوع هذا الإلحاح إلا لما ذكرت من اعتقادي بأن كثيراً من المسلمين انحرفوا عن فهم معاني الإسلام بمثل هذا الحديث الواهي . قال المناوي الجهاد الأصغر جهاد العدو المتبين والجهاد الأكبر هو جهاد العدو المخالط .

ومعنى شرح المناوي أن الجهاد الداخلي النفسي جهاد المرء بينه وبين نفسه : هو الجهاد الأكبر ، وجهاد العدو في ساعات القتال هو جهاد أصغر . وكأنما غفل المناوي ـ رحمه الله ـ عن أن جهاد العدو في ساعات القتال لا يخلص فيه المرء من الجهاد الداخلي بل هو أحوج ما يكون إلى أرقى أنواع الجهاد الداخلي ذلك أنه في تلك الساعة الحرجة يجب عليه أن يقاوم أكبر رغبة من رغباته رغبة البقاء ورغبة الحياة ، وليس ثمة صراع داخلي وجهاد نفسي أعظم

---

(1) النساء : ٩٥ .

من أن أتغلب على نفسي وهي تريد الفرار من الموت وأنا أقول لها تقدمي تقدمي إلى الموت .

كان أولئك الذين تقدموا إلى الموت بخطى ثابتة وقلوب مطمئنة ورؤوس مرفوعة في قصة أصحاب الأخدود التي جاء ذكرها في كتاب الله في سورة البروج ولا يبالون بالعذاب مستمسكين بدينهم مستعلين بعقيدتهم تحترق أجسادهم وتصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى فتستقبلهم ملائكة السماء معلنة شرفهم منادية بأن منازلهم في الفردوس الأعلى ... أكان هؤلاء في حالهم هذه في جهاد أصغر ؟ أكانت تلك المرأة التي جاءت بابن لها ترضعه وكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي الرضيع الذي أنطقه الله اصبري يا أماه فإنك على الحق . أكانت هذه المرأة التي ألقت نفسها بالنار ، في جهاد أصغر ؟

إن المنطق السليم يقول إن هؤلاء جميعاً كانوا في ذروة الجهاد وفي أعلى درجاته ، ولا يستطيع تصور بشر أن يرقى إلى جهاد أعلى من هذا الجهاد .

أكان عبد الله بن رواحة حين أخذ راية رسول الله ﷺ حتى يشيط في رماح القوم ــ أي يسيل دمه ــ رضي الله عنه ويهلك ثم يأخذ اللواء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بيمينه فتقطع ثم يأخذ بشماله فتقطع فيحتضنه بعضديه حتى يقتل رضي الله عنه .

يقول ابن إسحاق : « فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة

الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنــه لتنزلــن أو لتكرهنــه

أن أجلب الناس وشدوا الرنة[1] مالي أراك تكرهين الجنة ؟! ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم[2] فقال شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت فأخذه من يده فانتهس منه نهسة[3] ثم سمع الحطمة[4] في ناحية الناس فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل.» .

وعبد الله بن رواحة هو الذي شجع الناس في أول القتال فقال: «ياقوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة . » .

أكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في نزوله وتردده ثم اقدامه ثم استشهاده أكان في كل هذا في جهاد أصغر ؟

قال ابن إسحاق : (ولما أصيب القوم قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل

---

(١) الرنة : صوت فيه ترجيع .

(٢) عظم عليه بعض اللحم .

(٣) أخذ منه بيده يسيراً .

(٤) الحطمة : زحام الناس .

شهيداً ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيـداً ثـم صمت رسول الله حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان في عبد الله ابن رواحة بعض ما يكرهون ثم قال : « ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً » .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « لقد رفعوا إليَّ في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة أزورارا [1] عن سريري صاحبيه . فقلت : عمَّ هذا ؟ فقيل لي : مضينا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى » .) .

الله أكبر أكان عبد الله بن رواحة بعد كل هذا في جهاد أصغر؟

ب ـ الجهـاد في سبيل حماية الدعوة إلى الله ، هو ذروة الأمر وسنامه :

قال تباركت أسماؤه : ((**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**)) (٢) .

وقال تباركت أسماؤه : ((**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب**))(٣) .

---

(١) ميلاً وانحرافاً .

(٢) آل عمران : ١٤٢ .

(٣) البقرة : ٢١٤ .

كان الجهاد العملي لـدى المسلمين الأولين مقترناً بالجهاد النفسي ، لم ينفك أحدهما عن الآخر لحظة واحدة وكان الجهاد العملي أكبر وسيلة لتربية المسلمين وإقرار المعاني السامية والمثل الرفيعة في نفوسهم • وتلك الشدائد التي مر بهـا المسلمـون في مقابلة المشركين في مكة بدعوتهم إلى الحق وتلقي صدماتهم بصبر وثبات ، وتلك المصاعب التي واجهها المسلمون في المدينة لعرقلة سير الدولة الناشئة والجماعة المتضافرة ، هذه الشدائد وتلـك المصاعب كانت أعظم مربٍّ للمسلمين •

إن النقطة الهامة التي نريد ايضاحها : هي أثر الجهاد العملي في تربية الجماعة وفي نفوس أفرادها • إن الأمة التي تواجه الشدائد وتكافح الصعاب ، ويعيش أبناؤها في جهد دائم وجهاد متواصل ، هي الأمة التي تستحق الحياة وهي التي يكتب لها البقاء والظفر • وهكذا كنا ، وهكذا أصبح أعداؤنا بكل أسف • والأمة التي لا يعرف أبناؤها جهاداً ولا يعرفون النصب ولا العناء ولا مشقات الحياة ، هي الأمة التي يكتب عليها الذل ويسلط عليها الأعداء •

ليس من شك في أن أعلى درجات الجهاد ذلك الجهاد الذي تتغير فيه النفوس وهذا هو الذي فعله محمد عليه الصلاة والسلام حين فتح عيون الناس على الإيمان بالله وشرح الله صدورهم له فعرفوا للحياة معنى غير الذي عرفوه من قبل ، عرفوا الحياة جهاداً في سبيل الله ليخرجوا الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن عبادة بعضهم بعضاً إلى عبادة الله • وكان هذا التغيير تغييراً

فعلياً ، ولذلك ظهرت ثمرته في العمل بأسرع ما يمكن ولم يَكن العمل منفكاً عنه بحال •

إن الجهاد الأول هو جهاد وجداني جهاد في سبيل فكرة وفي سبيل عقيدة ، جهاد قائم على النظر إلى الحياة وإمعان النظر فيها ، وموازنة بين حياتين وفلسفتين واتجاهين ، حياة الجاهلية وحياة الإيمان• كانت مُثُلُ الجاهلية التفاخر والتكاثر والخمر والفروسية، وكانت الحياة التي دعا إليها محمد عليه الصلاة والسلام فيها رجوع إلى الله بارئها رجوع عن دعوى الربوبية والاستعلاء في الأرض إلى العبودية لله وتقديم النفس والمال في سبيل مرضاته •

وكان هنالك ترجيح لأحد الجانبين وتطفيف لإحدى الكفتين• وما إن قبلت حياة الحق بعد الجهاد الفكري الذي ساقه النظر السديد ورضي به القلب السليم وحفت به العاطفة الصادقة عاطفة حب الحق وإيثاره والرغبة في الخير ، وغذته الإرادة الطيبة ، ما إن تم الاختيار وأعطيت البيعة ؛ حتى كان التحفز لمواجهة الشدائد والاستعداد لمقابلة الوجوه التي ترهقها قترة الكفر والإلحاد وهي تحمل لواء الباطل وتريد أن تجتث شجرة الخير •

ما إن قبل المؤمن حياة الإيمان وآثر جانب الحق ، حتى استعد للبلاء • فالإيمان والجهاد توأمان لا ينفكان ، وصنوان لا يفترقان روح وجسد • الإيمان هو الروح والجهاد هو الجسد ولا يستطيع أحدهما أن يفارق الآخر •••

ثم إن تزكية النفوس وتربية الإخلاص في العمل يجب أن تتم في حقل الجماعة الإسلامية وفي ميادين الجهاد . وهكـذا كانت تربية المسلمين الأولين ..

والمثل العملي التالي يوضح ما نقول : عاش المسلمـون في غزوة الأحزاب ثلاثين يوماً والعدو محيط بالمدينة من أطرافها وليل الصحابة كنهارهم حذر مستمر وسهر دائم والمسلمون يعانون من الخوف والجوع والعدو ما يعانون ، وهنالك في مثل هذا الجو المحاط بالرهبة المطبقة الذي تسلم فيه النفوس إلى بارئها وتفوض الأمور إلى مدبرها وتتيقظ الضمائر وتستيقظ العزائم ، يجـد المؤمنون العون مصاحباً لا يفارق في الحركات والسكنات ، وفي هذا الجو الجليل الخاشع المخيف تتجلى معاني الإقدام في سبيل الله وتتضاعف قوة الإيمان وتمحص القلوب ، يتم كل هذا وتبلغ آثاره أعماق النفوس بما لا يمكن أن يتم مثله ــ بل جزء يسير منه ــ في مئات السنين في العزلة وفي أعماق الزوايا .

إن روح الإيثار تبدو في ساعات الشدة ، والمعاني الرفيعـة تغرس في القلوب في الساعات التي تتعرض فيها الجماعات للأخطار، والموت مخيم على الجميع بظله الرهيب .

وروح الصبر على الشدائد والجلد على المكاره وروح الثقة بالله والإيمان به والاخلاص له وانتظار فرجه وروح التعـاون والتآزر ، كل هذه تبرز في ساحات الجهاد وفي صفوف المؤمنين الذين يقدمون أرواحهم خالصة لوجه الله .

كان لا يمر على أصحاب رسول الله شهر أو شهران لا يخرجان فيهما للقاء عدو .

وحياة القتال تلك الحياة التي يقدم المؤمن فيها أعز شيء لديه ـ نفسه التي بين جنبيه ـ تتيقظ فيها المعاني الطيبة فيسهل الإيثار وتسقط الأنانية وتذهب الأثرة ، أما دعوى مجاهـدة النفس في حالات الرخاء والأمن والدعة فهي دعوى مشوبة بكثـير مـن المغالطات . والحق أن الأمة الإسلامية حينما فقدت أيام الجهاد وميادين القتال ، فقدت معها جميع المعاني السامية والمثل الإسلامية الرفيعـة .

ويقول الله تعالى ايضاً : ((**وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكـم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم،هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين**))(١) .

قدمت السورة لذكر موقعة أحد بهذه الآيـات الكريمـة ، وقد جاء في هذه الآيات نقاط هامة نوجزها فيما يلي :

أولها : خروج الرسول ﷺ إلى الموقعة وتعبئة الأصحاب لها.

الثانية : ذكر الطائفتين اللتين همتا بالرجوع ، واهتمام الآيات

---

(١) سورة آل عمران : ١٢١ ـ ١٢٥ .

الكريمة بذكر شأن هاتين الطائفتين جدير بالنظر العميق والتأمل الدقيـــق .

الثالثة : ذكر بدر والنصر والإمداد بالملائكة فيها .

ولعل هذه النقاط الثلاث تلخص الموقعة بتمامها وتأتي على ذكر أمور من أكبر الأمور أهمية فيها .

أما المسألة الأولى:فهي تشير إلى خروج الرسول عليه الصلاة والسلام وأخذه الأمر بالعزيمة الصادقة والإرادة النافذة ، ولقد ترك منزله وهجر أهله وفارق السكون والطمأنينة اللذين يجدهما المرء في منزله ، وفارق ما ألف من مطعم ومشرب وراحة ونوم إلى المشقة والعناء .

وكل ذلك هين رخيص لأن وراءه أمراً جليلاً ، تعبئةُ جيش المسلمين وإنزالُ كل من المقاتلين منزله ، تسليمُ الرايات لأصحابها ووضع كل فرقة في مكانها ، تحديد الطليعة والساقة والجناحين والمؤخرة واستقبالُ المقاتلين بوجه يلقي في قلوبهم الطمأنينة ويُقرُ السكينة ويبعث معاني القوة والشجاعة ويحفز إلى الإقدام ، وبعد كل هذا التثبيت والتأييد للمقاتلين ، استعراض الجيش كله وردّ الأحداث الذين لا يطيقون القتال ولكنهم يتقدمون طامعـين في الجنة يدفعهم باعث الإيمان العميق ؛ ومن الذين ردهم رســول الله عليه صلوات الله وسلامه عبد الله بن عمر وزيـد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، والنعمان بن بشير ، زيد بن أرقم ، والبراء بن

عازب ، وأسيد بن ظهير وعرابة بن أوس ، وأبو سعيد الخدري ، وسمرة بن جندب ورافع بن خديج •

وعندما ردّ رسول الله ﷺ الأحداث ، قال ظهير بن رافع[1] لرسول الله : إن رافع بن خديج يجيد الرماية •

قال رافع : وجعلت أتطاول وعلي خفان لي فأجازني رسول الله ﷺ • فلما أجازني قال سمرة بن جندب لربيبه مُري بن سنان الحارثي وهو زوج أمه : يا أبت أجاز رسول الله رافع بن خديج وردني وأنا أصرَع رافع بن خديج •فقال مُري بن سنان الحارثي: يا رسول الله رددت ابني وأجزت رافع بن خديج وابني يصرعه ، فقال رسول الله ﷺ تصارعا فصرع سمرةُ رافعاً فأجازه رسول الله ﷺ •

وهكذا كان أبناء صحابة رسول الله يتنافسون على الموت •

وجعل رسول الله ﷺ يمشي على رجليه يسوي تلك الصفوف ويبوىء أصحابه مقاعد للقتال • يقول : تقدم يافلان وتأخر يافلان، حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخره فهو يقومهم كأنما يقوم بهم القداح حتى إذا استوت الصفوف سأل : من يحمل لواء المشركين ؟ قيل بنو عبد الدار قال نحن أحق بالوفاء منهم •

---

(١) والد اسيد بن ظهير وهو عم رافع بن خديج. انظر الإصابة: ٤٣٦/٢ تحقيق البجاوي .

أين مُصعب بن عمير ؟ قال : هاأنذا . قال : خذ اللواء ، فأخذه مصعب بن عمير فتقدم به بين يدي رسول الله ﷺ . ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب ابن المنذر بن الجموح .

وتجمع الروايات على اهتمام الرسول عليه صلوات الله وسلامه بمنازل الرماة . أما رواية البخاري فهي ما يلي : « وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمّر عليهم عبد الله وقال : لا تبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » . ورواية ابن سعد : « قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فان رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا وإن رأيتم نقتل فلا تنصرونا » .

كل هذه المعاني هي بعض ما انطوى عليه قوله تعالى : « تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » وهي تنطوي على الموقف الاستراتيجي للجيش كله الذي أمر به عليه الصلاة والسلام حين عسكر المسلمون بالشعب من أحد في عدوة الوادي جاعلين ظهرهم إلى جبل أحد .

وكل هذا يبين ما لهذه الجملة الكريمة « تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » من مكانة عسكرية وما لها من أثر في كسب المعركة لذلك ذيلت بقوله تعالى : « والله سميع عليم » وهما كلمتان تزرعان في قلب المؤمن خشيةَ الله ومراقبته فهو جلّ شأنه يسمع ويرى .

والمسألة الثانية : تشير إلى الخطر الكبير الذي ينجم عن وجود طائفة في جيش المسلين لا تؤمن بعيقدة المسلمين ولا تخلص الود لجماعة المسلمين ولا تشعر بالولاء لهم • إن أمثال هؤلاء إذا وجدوا فشأنهم كما قال تعالى : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً »[1] •

والمسألة الثالثة : تتحدث عن شروط النصر الرئيسية الهامة وهي تتصل بالمسألتين السابقتين ، وهي العامل الأساسي في كل نجاح ، وفقدها السبب في كل إخفاق إنها : الصبر والتقوى • وما الصبر إلا ثمرة من ثمرات التقوى • وحين يفقد المؤمن شيئاً من صبره وشيئاً من تقاه فلا بد من أن يؤدي ذلك إلى شر لا يقتصر أمره عليه وحده ولكنه يتعداه إلى جماعته كلها • وهذا هو الذي وقع في غزوة أحد حين رأى الرماة المشركين قد هزموا ، فخانهم صبرهم وفارقتهم عزيمتهم فتركوا منازلهم وخالفوا أمر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وجعلوا يقولون الغنيمةالغنيمة ، ولقد ذكرهم رئيسهم عبد الله بن جبير وقال لهم : (أما عهد إليكم رسول الله ﷺ ألا تبرحوا) فلم يسمعوا وظنوا أن ليس للمشركين رَجعة وذهبوا في طلب الغنيمة وأخلوا الثغر • وكان ذلك هو الفشل وهو الجبن والضعف ولم يكنإلاضعفاً عن الصبروالتقوى، وكان مع الفشل تنازع إذ قال بعضهم نلحق بالغنائم وقال بعضهم

(١) سورة التوبة الآية : ٤٧ •

نثبت في مكاننا وكان مع هذا كله عصيان لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام .

تحدثت الآية الأولى عن مواقع المقاتلين تلك المواقع التي أنزلهم فيها رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وتحدثت الآية الثانية عن طائفتين من المؤمنين همتا بالفشل . وكان في الحديث عن الطائفتين إشارة إلى المبدأ الهام الذي وضعته الآيات الكريمة ، والقاعدة التي قعّدتها عدم اتخاذ بطانة من غير المؤمنين ، والصلة وثيقة بين هم الطائفتين وانسحاب رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بعد أن سار مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حتى بلغ الشوط قريباً من أحد وكانت مكيدةً لئيمة وقى الله المسلمين شرها . ولقد ألفينا الآية الكريمة « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » كالمثال الموضح لنتائج اتخاذ المؤمنين بطانة من غيرهم فهم لا يألونهم خبالاً ولا يقصرون في إفساد أمرهم . ومثال من أمثلة الإفساد الكبير أن ينخذل رأس المنافقين ويرجع ومعه ثلث الجيش فتهمّ طائفتان من المؤمنين بالرجوع معه ، ولكن إيمان هاتين الطائفتين يعصمهما ، والله تباركت أسماؤه يثبتهما .

والسؤال الذي يرد ههنا : هل بقي بعد انسحاب عبد الله بن أبي أحد من المنافقين في جيش المسلمين ؟ وهل لوجود المنافقين بين أظهر المؤمنين أثر أدى إلى ضياع المعركة وفوات النصر ؟

والجواب بالإيجاب ، يدل على ذلك قوله تعالى في شأن الموقعة : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشي طائفة

منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك . يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا » [1] يقول ابن جرير الطبري هم المنافقون يظنون بالله الظنون الكاذبة ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله شكاً في أمر الله وتكذيباً لنبيه ﷺ . ويروي ابن جرير بسنده إلى الزبير قال : والله إني لأسمع قول معتّب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف ، والنعاس يغشاني ، ما أسمعه إلا كالحلم حين قال : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا » ومعتّب بن قشير معدود في المنافقين. ذكره ابن حجر في الإصابة وقال : « وقيل إنه تاب » .

أما الآية الثالثة (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) فهي تذكير بالنصر ببدر ،وحين يذكر المرء وهو في حال الإخفاق بموقف تمّ له فيه النصر فالغرض أن يقارن حاله في الموقف الثاني بحاله في الموقف الأول .

وقد اقترن التذكير ببدر بالإمداد بالملائكة فيها ، وفي الآية الكريمة إشارة من طرف خفي أن الإمداد بالملائكة تمّ في بدر ولم يتم في أحد . قال ابن كثير : (لكن قالوا لم يحصل الإمداد بأحد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فرّوا يومئذ ، زاد عكرمة ولا بالثلاثة آلاف لقوله تعالى : « إن تصبروا وتتقوا » فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٤ .

ويقول القرطبي : (ولو أمدوا لما هزموا . قال عكرمة والضحاك فان قيل : فقد ثبت عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ، وما رأيتهما من قبل ولا بعد . قيل له : لعل هذا مختص بالنبي ﷺ خصه بملكين يقاتلان عنه ولا يكون هذا إمداد للصحابة .

وبعد فهذه هي أسباب النصر في كل معركة اشتملت عليها هذه الآيات الكريمة :

١ ــ منازل القتال والحفاظ على طاعة القائد فيها .

٢ ــ وحدة الصفوف وخلوها من العناصر الدخيلة .

٣ ــ الصبر والتقوى ، وهما قوام الأمر كله وبهما تتنزل الملائكة تمد المؤمنين .

جـ ــ المؤمن لا تهن عزيمته :

قال تباركت اسماؤه : **((ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون إن كنتم مؤمنين))**(١) .

كان أصحاب رسول الله خير أمة أخرجت للناس بما وهبوا من قوة في استعدادهم ونقاء في ضمائرهم وسلامة في فطرهم وبما أعزهم الله به حين خصهم بأكرم رسله .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ .

ولم تكن تربية الأصحاب بعد إيمانهم بالله قاصرة على تحدي الصعاب ومنازلة الشدائد والتأسي بسيد الرسل ؛ ولكن إلى جانب هذا كله كان وحي السماء يرقب أعمالهم ويزن حركاتهم ويأخذ بأيديهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس وليسير إخوانهم من بعدهم على آثارهم يقتفون خطتهم . وهكذا كانت التربية التي تلقوها « تربية من عند الله » .

تنزلت الآيةالكريمة وهي قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » بعد موقعة أحد ولم يكن الأصحاب رضوان الله عليهم بعد موقعة أحد يشعرون بشيء من الانكسار في نفوسهم ولا الحزن في قلوبهم ، ولم تكن الصدمة بالتي أوهت عزائمهم أو أوهنت قواهم ، فلقد قاموا من يومهم الثاني يحملون جراحاتهم كالأسود يتبعون أولئك الذين كانوا يحسبون أنهم قد أديل لهم من المسلمين وإنهم قدبلغوا منهم مأربهم . لم يكن الأصحاب في ريبة من أمرهم ، ولم يفقدوا معاني الطمأنينة إلى النصر ، إن الذي تم يوم أحد زلة وقى الله المسلمين شرها ، ولكن على رغم كل هذا فقد تنزلت الآيات الكريمة تمسح الجروح وتهدىء القلوب وتعيد إليها السكينة وتطمئن المؤمنين بأنهم الغالبون ما داموا مؤمنين .

ولئن كان جل الأصحاب ممن لا تزعزعهم الشدائد ولا تهزهم العواصف فليس من شك أن فيهم من هم أضعف من ذلك ، فلا

بد من تثبيت قلوب هؤلاء • ولكن الخطاب موجه إلى الجميع يأخذ كلٌ من الخطاب بقدر فهمه وحسب قوته : الثابتون يزدادون ثباتاً والآخرون يلحقون بإخوانهم •

كان في الموقف أمور لا بد من الوقوف عندها: علاج النفوس حين فاتها النصر ، لتؤدي الواقعة غرضها ، وليقع الدرس موقعه، ولتكون الموقعة درساًمفيداً يجنون ثمراته ويتجنبون آفاته ، كان فوات النصر درساً شديداً ، فيجب أن يكون حافزاً قوياً لا عاملاً مثبطاً ، وذلك حين يعلم المسلمون أن لله سنّة في خلقه وأن للنصر أسباباً إن هم أضاعوها أضاعوا النصر ، فليحرصوا على عدم إضاعتها ، لقد كانت الخطيئة من عند أنفسهم فليتجنبوها •

كان لا بد من دفع اليأس عن بعض القلوب وإبعاد الوهن ، ذلك لأن المرء حين يفقد الثقة بالنصر وحين ييأس من رَوْح الله فقد تودع منه،ومن عوامل اليأس أن يحسب المرء أنه لا قِبل له بالأمر• قال تعالى حاكياً قصة طالوتَ وأصحابِه :

« فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده »[1] •

ولو أن هؤلاء استمروا على ما ذكروا من خوف من عدوهم لكان نصيبُهم الفرارَ والهزيمة ، ولكنهم كانوا صفوةً من القوم، وكانوا على استعداد لتذكر معاني الإيمان ، وكان إلى جانبهم في

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٩ •

صفوفهم إخوان لهم ، أترعت قلوبهم بالإيمان وعظوهم وذكروهم فانقلبوا في الحال من خوف إلى أمن ومن ضعف إلى قوة ، ومن خاذل إلى عزيمة وثقة بنصر الله .. كان هؤلاء مؤمنين حقاً وقد ذكر الله خطابهم لإخوانهم ، قال تعالى : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين »[1] . وهنا تنزلت السكينة على المقاتلين وتوجهوا إلى ربهم يستنصرونه قال تعالى : « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين »[2] كان هذا النداء حين ثابت القلوب إلى ربها تستمد منه قوتها مؤمنة بأنها تطلب العون ممن لا يُعجزه عون وكان أولَ ما طلبت تثبيت القلوب وتثبيت الأقدام ثم طلبت النصر فجاءها النصر . قال تعالى: « فهزموهم بإذن الله ... »[3]

وهكذا كان الوهن والإيمان ضدين لايجتمعان في قلب واحد فالذي يغلب الوهن على قلبه ويشتت الضعف فؤاده هو امرؤ نسي إيمانه ونسي ارتباطه بخالقه .

كان لا بد من دفع اليأس وإبعاد الوهن عن بعض قلوب الأصحاب بعد غزوة أحد ، ومن أسباب الوهن أن يحسب المرء

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٩ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٠ .

(٣) سورة البقرة : ٢٥١ .

أنه لا قبل له بمقابلة عدوه ولم يكن كذلك الأصحاب رضوان الله عليهم ولكن كان يحسب بعضهم أنهم لا يُغلبون أبداً ، لأن الله قد وعدهم بالنصر وهم يقاتلون في سبيل الله وهم مسلمون ، فإذا فوجىء المرء بما لم يكن يتوقع أصيب بالنكسة واليأس ، وقد ذكرت الآيات الكريمة تعجب بعض الأصحاب مما وقع ، قال تعالى: « أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ » [1] . وقد أجاب تباركت أسماؤه وبيّن للأصحاب من أين أتُوا ؟ قال تعالى : « قل هو من عند أنفسكم » [2] . ومثل هذا قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » [3] .

كان فوات النصر درساً شديداً على الأصحاب ولقد تناولته التربية الحكيمة ليكون حافزاً للمسلمين للسير إلى الأمام مبصّراً لهم بنواحي ضعفهم حاملاً لهم على التأمل في أنفسهم وفي أخطائهم دافعاً لهم إلى الاستيقان بأن النصر قريب إليهم إذا بَصروا بأمرهم وتجنبوا أخطاءهم .

وهكذا كان غرض الآيات الكريمة الكشفَ عن الأخطاء وتبصيرَ المسلمين بها واحدة بعد واحدة وإيقاظَ معاني الإيمان وإبعاد روح الوهن ودفعَ المؤمنين للسير في الذي نُدبوا له .

(١ ــ ٢) آل عمران : ١٦٥ .

(٣) الشورى : ٣٠ .

ولقد فعلت الآيات الكريمة في نفوس المسلمين فعلها وأعدتهم للجولات المقبلة إعداداً قوياً ومهدت بذلك لدورهم في قيادة العالم كله .

د ـ لا نفر من الزحف :

قال الله تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**))(1) .

هكذا يريد الإسلام من المسلمين أن يكونوا أكبر قوة ضاربة في العالم وليس ذلك لانتزاع حريات الناس واستعبادهم ولا لاغتصاب ديارهم والاستئثار بخيرات أراضيهم ولا لفرض مبدأ أو اكراه على عقيدة ، ولكن الإسلام يريد أن يحمي دولة الحق وينقذ الناس من سلطان الباطل ويخرجهم من عبادة الناس للناس .

وإذا اتخذ الناس شعارات ، فشعار المسلم أنه لا يخشى الناس ولا يفر من الزحف ولا يجزع من الموت . والذي اتصف بهذا يربأ بنفسه أن يسكت على منكر أو يغمض عن أذى أو يغض طرفه عن ظلم .

ما موقف المسلمين من الحكم الإلهي الذي تضمنته الآية الكريمة ؟

---

(1) الأنفال : 15 ـ 16 .

تشتمل الإجابة نقاطاً أربعاً :

الأولى : موقف المسلمين الأولين من الآية الكريمة •

الثانية : موقف المسلمين الحالي من الآية الكريمة •

الثالثة : تربية الأصحاب رضوان الله عليهم تربية بيع النفس في سبيل الله (في مكة وفي المدينة) •

الرابعة : ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من الآية الكريمة في الأيام التي يغلب فيها المسلمون على أمرهم •

١ ـ موقف المسلمين الأولين من الآية الكريمة :

وهكذا أوجدت الآية الكريمة ـ بندائها الحازم وجوّها الرهيب وتهديدها المريع ـ لدى المسلمين الأولين شعوراً بأنه لا يجوز للمؤمن أن يفر من زحف المشركين وإن كان عددهم بعدد الرمل والحصا ، وإن ملؤوا السهل والجبل • ولم يكن ليقوم في أذهان المؤمنين السابقين في مواطن اللقاء أن العدو أكثر منهم عدداً وأقوى عدداً ذلك لأن النصر بيد الله والغلبة بعونه ، وأنه لما يخدش في عقيدة المسلم أن يخشى مناجزة الكافرين ، وإن كثر عددهم واشتد بأسهم ، والله تباركت أسماؤه يعتب على المؤمنين أن يخشوا الناس ، يقول تعالى : « أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين »[1] • وفي هذه الآية إنكار وتعجب ووعيد وفي

---

(١) التوبة : ١٣ •

قوله تعالى : « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية »[1] : تعنيف وزراية بأولئك الذين يخشون الناس . والآية الكريمة نفسها تبين سر الضعف . قال تعالى : « وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً »[2] . مفتاح السر في قوله تعالى : « متاع الدنيا قليل » وهو محور الموضوع كله .

وهكذا كان أمر الفرار من الزحف متصلاً بالعقيدة اتصالاً واضحاً ؛ ذلك أن الباعث له الحرص على متاع الدنيا والزهد في الآخرة . والثبات يوم الزحف مبعثه الإيمان بقوة الله جل شأنه وأنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده ، والطمأنينة إلى نصره والثقة بما عنده . وما عند الله خير وأبقى . وإن الموت لا يعجل به إقدام ولا يبطىء به قعود ولا إحجام .

كان المسلمون في مؤتة ثلاثة آلاف ولما بلغوا مَعان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبليّ مائة ألف ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

---

(١) آل عمران : ٧٧ .

(٢) آل عمران : ٧٧ .

وهنا نجد منطقاً معقولاً لا غبار عليه ولا ثلمة فيه ولكنه لم يوضع موضع التنفيذ وكان العامل في ذلك اقتراح تقدم به عبد الله ابن رواحة إذ قام فقال : يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ــ الشهادة ــ وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة . فقال الناس : قد صدق والله ابن رواحة فمضى الناس .

وقد استشهد في الموقعة زيد بن حارثة واستشهد جعفر بن أبي طالب واستشهد عبد الله بن رواحة . يروي البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه ، في القتلى ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية . وفي الصحيحين أنه ﷺ لما ذكر مصابهم وهو فوق المنبر جعل يقول : « أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، ثم أخذها سيف من سيوف الله ففتح الله عليه » . قال وإن عينيه لتذرفان . قال وما يسرهم أنهم عندنا .

ولقي الروم من شدة وطأة المسلمين ما جعلهم يرضون من الغنيمة بالإياب وبأن يكف المسلمون عنهم ، يقول ابن اسحاق : « فحاش خالد الناس ودافع وانحاز وانحيز عنه » وهذه المدافعة تشير إلى ما أبدى خالد للعدو من البأس وأقصى درجات البطش ، يروي

البخاري في صحيحه عن قيس قال : سمعت خالد بن الوليد يقول : لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية . وقد ذكرنا ما رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قال : « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » . يقول ابن حجر : « فمن يومئذ سمي سيف الله » . ثم انحاز خالد رضي الله عنه فرأى الروم في انحيازه متنفساً للضيق الذي كانوا فيه فلما انحاز انحاز الأعداء . يقول ابن حجر وقع في المغازي لموسى بن عقبة ــ وهي أصح المغازي ــ ما نصه : « ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين . » .

ويفسر ابن اسحاق قوله عليه الصلاة والسلاة والسلام (حتى فتح الله عليه) بأن المراد به انحيازه بالمسلمين حتى رجعوا سالمين. أما ابن كثير فيقول : وموسى بن عقبة والواقدي يصرحان بأنهم هزموا جموع الروم والعرب الذين معهم وهو ظاهر الحديث المتقدم (ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه) وهذا هو الذي رجحه ومال إليه الحافظ البيهقي بعد حكاية القولين .

ويقول ابن اسحاق : « حتى انصرف خالد بالناس ووصل المدينة واستقبلهم الناس وجعلوا يحثون على الجيش التراب ويقولون يا فرار ، فررتم في سبيل الله فيقول رسول الله ﷺ ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى » .

وروى أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود عن ابن عمر قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنامن الزحف وبؤنا بالغضب ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبتنا ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال من القوم قال فقلنا نحن الفرارون قال : لا بل أنتم الكارّون ، أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين قال فأتيناه حتى قبلنا يده . يشير ابن عمر وأصحابه الذين حاصوا بقولهم فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب إلى قوله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله »[1] .

وهكذا أدرك الأصحاب معنى الآية إدراكاً عميقاً بلغ سويداء الفؤاد وشغاف القلوب ، وهكذا وضعوها موضع التنفيذ العملي الدقيق .

٢ ـ موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة :

والمسلمون اليوم قد نسوا أمراً واحداً ألا وهو صناعة الموت وحرفة القتال .

وإن المرحلة التي يمر بها المسلمون اليوم لم يسبق لها مثيل في التاريخ أبداً ذلك أن كيد العدو ما بلغ في يوم في إحكامه ونفاذه

---

(١) سورة الأنفال : ١٦ .

واتساع مداه ما بلغ اليوم ، وما بلغ استسلام المسلمين في يوم ما بلغه استسلامهم اليوم .. وما يؤذن كل ذلك إلا باقتراب الفرج ذلك إن الشرور قد بلغت غايتها والعدو قد بلغ النهاية في ظلمه وطغيانه ... وههنا يزداد المؤمن ثقة بالله وبعونه ونصره ويستبشر المؤمن كما يستبشر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه حينما تحدق الخطوب وتشتد الكروب .

إن بشائر الأمل لا تنقطع ، ولكن ساعة الانطلاق لم تؤذن بعد ، وما زلنا في مرحلة لا يشعر الفرد منا فيها بأن عليه أن يحمل التبعة ولو كان وحده . ولكنا يلوم بعضنا بعضاً ويلقي كل منا التبعة على غيره .

وإن الأجيال ستوجه إلينا العتاب الطويل ، وإن الله تباركت أسماؤه سيسألنا كيف أسلمنا الأمر بأيدينا لخصومنا ؟ وكيف سلونا عن واجبنا ؟ وكيف لهونا عن عدونا ؟ أين كنا حين سطا الأعداء وماذا فعلنا حين غلب الدخلاء وكيف استقرت بنا الأرض بعد أن قهرنا الأذلاء ؟

وإن كثيرين من أبناء هذا الجيل الذين أشرفوا على آخر العمر ــ من أمثالي ــ لا يحبون أن يسمعوا كلمة القتال ولا يروق لهم أن يتحدث متحدث عن الجهاد . ولقد سمعت اللوم من كثيرين من عامة الناس وخاصتهم ، سمعت من كثيرين من الأماثل يقولون : أليس هنالك موضوع غير الجهاد ؟ أليس في الإسلام فريضة إلا فريضة الجهاد ؟

ويقولون : كيف يمكن الجهاد ؟ والمسلمون مشتتون وقلوبهم متفرقة والجهل غالب والبعد عن روح الإسلام عام شامل ؟!

ويقولون ألا يشبه حال المسلمين اليوم حال أهل مكة وقد قيل لهم : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

أقول : إن العلة الحقيقية هي ما غلب على قلوب المسلمين علمائهم وعامتهم من حب للدنيا وكراهية للموت ، والذي يحول بيننا وبين العمل في سبيل الله والدعوة إلى الله والصدع بالحق ، الخوف على الدنيا والخوف من الموت .

إن التربية على حب الدنيا وكراهية الموت غرست في قلوبنا وأحكم غراسها في أعماق نفوسنا ، اتفق على ذلك آباؤنا وإخواننا ومعلمونا ومجتمعنا ، وعلى ذلك ربينا نحن أيضاً الأبناء ونشأنا الأجيال .

إن الجهاد اليوم حق على المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها وهو موضوع الساعة وليس هنالك اليوم بعد الإيمان بالله وإداء الأركان فريضة أكبر من فريضة الجهاد ذلك أنه الوسيلة اليوم لحفظ إيمان المؤمنين ، وتركه يؤدي إلى ضياع الفرائض كلها إذ يسمح لاعداء الله بفتنة المسلمين وإخراجهم من دينهم .

ولقد جحد الإله جل شأنه في بعض البلاد الإسلامية واستهزىء به تباركت أسماؤه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً وحرق المسجد الأقصى وقتل علماء المسلمين على مرأى ومسمع

من إخوانهم ؛ كل ذلك لأن مهابة المسلمين قد نزعت من صدور الكافرين ... ولكن الأدهى من كل هذا أن تخطيط الأعداء ومكرهم لم ينته عند هذا الحد ، ذلك أنه ما تزال في المسلمين بقية يخشى الأعداء نموها وعودتها إلى أيامها الأولى ، ولن يطمئن هؤلاء حتى تزول البقية الباقية ، ولكن الله غالب على أمره وإننا كما نؤمن بأن الله ربنا ، نؤمن بأن الله ناصر دينه معل كلمته .

إن الله قد فرض علينا القتال وإن المسلمين يدفعون اليوم هذه الفريضة بأعذار واهية ولو انهم آمنوا بالله وامتثلوا أمره لوجدوا السبيل لدفع الأعذار وقطع دابرها .

أما القائلون كيف يمكن الجهاد والمسلمون مشتتون جاهلون بعيدون من معاني دينهم فجوابهم : علاج هذا كله بالدخول في ميادين القتال ، لقد عرف النصارى الصليبيون الغربيون أنفسهم ووجدوا وحدتهم وخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه بعد أن خرجوا من قتال المسلمين مائتي عام ، لقد بدأت يقظتهم بعد تلك الأعوام بأعوام يسيرة وكانت نهضتهم التي استمرت إلى أيامنا هذه .

إن المسلمين لم يشعروا بعد بالنكبات التي حلت بهم والخطر الذي يحفهم وما تزال وسائل التخدير ماضية لاتسمح للمسلمين أن يفتحوا عقولهم وأبصارهم ، ولو شعر المسلمون بالخطر لاجتمعت قلوبهم فليس شيء يجمع القلوب كالمحنة حين تعم .

لم يشعر المسلمون بالمحنة لأنهم لم يدخلوا جميعاً في صف واحد كما أمرهم الله في قتال العدو ولو دخلوا لشعروا بوطأة المحنة.

إن العدو اليوم لا يستعمل أسلحته المادية فحسب في قتال المسلمين ، ولكن لديه إلى جانب ذلك أسلحة نفسية ومكتشفات علمية وهي أمضى من الأسلحة الأولى ، وهدفهم أن يستسلم المسلمون إلى نومتهم ويظلوا في رقادهم .

إن المسلمين اليوم تشبه حالهم حال إخوة كثيرين سلط عليهم عدو ماكر لئيم يذبح في كل يوم واحداً منهم ، ثم يسرع إلى الآخرين بالطبول والمعازف والزمور فينسون أخاهم المذبوح وينصرفون إلى لهوهم ..

إن أعظم ميدان للتربية ميدان القتال ذلك أن الذي قدم نفسه للموت في سبيل الله واستطاع أن يجاهد نفسه حتى وصل إلى هذه الغاية ، يهون عليه أي جهاد آخر ، ففي هذه الميادين تخلص النفوس وتمحص النوايا وتصدق العزائم وتصفو القلوب، إنّ واجباً علينا أن نعد أنفسنا لندخل الميدان ، وهنالك حين ندخل ــ نحن المؤمنين ــ الميدان يتم إيماننا وتكمل تربيتنا ، وإذا كان لا بد للقتال من مرحلة تسبقه وتعد له فهذا الإعداد والتهيؤ فرض على للمسلمين وواجب عليهم أن يباشروه .

وأما قول القائلين بأن المسلمين اليوم في مرحلة تشبه المرحلة المكية فهو خطأ من وجوه :

أولها : أن الأصحاب رضوان الله عليهم لم يكونوا في مكة في نوم ولا استسلام لأعداء الله ، ولكنهم كانوا في أعلى درجات الجهاد معلنين إيمانهم بالله وكفرهم بالطواغيت وبأنظمة المجتمع الجاهلي وعقائده وأعرافه ، منسحبين منه محاربين له مجاهرين بازدرائهم له واحتقارهم إيله ، خارجين عليه خروجاً تاماً في عقيدته ومثله وأعرافه وتقاليده . ولقد كانوا لكل هذا في تحد دائم وصبر مستمر على العذاب والأذى والاضطهاد ، لقد صبروا وصابروا وهاجروا مرتين وأوذوا وقوطعوا حتى أكلوا أوراق الشجر . أين المسلمون اليوم من كل هذا في استسلامهم لجاهلية اليوم وسكوتهم عنها ومشاركتهم فيها وتأثرهم بها .

لقد كان أصحاب رسول الله في مكة جادين عازمين مصممين يعدون العدة ويجمعون القوى لليوم الذي يواجهون فيه العدو .

أما نحن اليوم فيجب أن نخرج من دور اللعب واللهو واللغو ودور الأماني إلى مرحلة الإعداد والتهيؤ والتخطيط والعمل والجد والعزيمة .

الأمر الثاني : إن الله قد أتم دينه وأكمل نعمته وحد حدوده وفرض فرائضه وأحكم شريعته . وحكم القتال اليوم في شرعة الله فرض عين في رقبة كل مسلم ، من تركه كان مخالفاً لأمر الله واقعاً في الإثم ــ وكذا حكم الاعداد له ــ ، والقتال في المرحلة المكية كان منهياً عنه لم يؤذن به ولم يسمح للمؤمنين بمباشرته ، وكان

يعتبر من فعله عاصياً مخالفاً لأمر الله فكيف يصح أن تقاس الحال التي لم يفرض فيها القتال ولم يؤذن به ، بالحال التي يكون القتال فيها فرضاً عينياً من قصر فيه كان من أهل الإثم والوعيد ؟.

الأمر الثالث : كان عدد الأصحاب في العهد المكي لا يزيد على بضع مئات وعدد المسلمين اليوم سبعمائة مليون كلهم رجالاً ونساءً شباباً وشيوخاً فرض الله جل شأنه عليهم القتال فرض عين في هذه الساعات الرهيبة ، فكيف تقاس مئـات الملايـين على بضع مئين ؟

إن الموضوع اليوم موضوع القتال وإنها ساعة النفير العام ، وإنها ساعة الجهاد والتنافس في الجهاد ، والساعة التي يجب أن تسري فيها عدوى الجهاد في قلوب المؤمنين من فئة إلى فئة .

وإن العدو اليوم لا يجد في أمر المسلمين حيرة ، ولا يجد عناء ، بل المسلمون اليوم كما يريد الأعداء هادئون مطمئنـون يساقون إلى الموت وهم غافلون ، ولو فزع كل مسلم إلى سلاحه كما أمر الله لتحير العدو ودهش .

٣ – تربية بيع النفس لدى أصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم :

كان الأصحاب في مكة رضوان الله عليهم يمثلون الجماعـة التي أخذت على نفسها حماية الحق الذي آمنت به وإن كان مـن

وراء ذلك جفوة الأهل وسخط العشيرة ، وإن كان من وراء ذلك العذاب والنكال •

وكانت آيات الكتاب الحكيم تقص عليهم نبأ الذين كانوا من قبلهم تتفتح قلوبهم لدعوة الحق والإيمان بالله فيفتنهم الذين كفروا فلا يصرفهم العذاب عن إيمانهم ، كان الأصحاب يتلون تلك الآيات ويعاهدون على الثبات كما ثبت المؤمنون من قلبهم •

ولم يكن ليؤذن لهم أن يواجهوا يومئذ البطش بالبطش ولا الأذى بالأذى ،ولم تكن نفوسهم تلك النفوس التي ترضى بأن تحتمل ضيماً ، ولكنها التربية الحكمية الكاملة ، الطاعة لله ولرسوله والضبط والإحكام ، قيل لهم : (كفوا أيديكم) فكفوا أيديهم وأخذوا يروضون أنفسهم على الصبر والأناة واحتمال جهل الجاهلين وبغي الطاغين •

ولم يكن المؤمنون ذاك اليوم في ذل ولا استخذاء ولا يأس ولا وهن ولكنهم كانوا يحتملون الأذى والموت في سبيل الله وعيونهم قريرة وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ونفوسهم مستعلية على شرك المشركين وضلالهم وفتنهم •

ثلاثة عشر عاماً تمر في تربية الضبط والإحكام ، وتمهد للأعوام العشرة المدنية التي تلتها والتي تم فيها فتح الجزيرة العربية ، وهذه تمهد للأعوام التي تلتها والتي امتد فيها الإسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب •

انتهت المرحلة الأولى ببيعة العقبة الكبرى، حين بايع أصحاب العقبة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر وأثرة عليهم وأن يقولوا بالحق أينما كانوا لا يخشون في الله لومة لائم .

وهنالك أُذنَ للذين يقاتلون . وانتهت المرحلة الأولى وكان الإذن من عند الله العلي القدير .

وإنه لأمر عظيم أن يضع مخطط َ المعركة الحكيمُ الخبير ، وذلك لتظل تلك الفئة المؤمنة أنموذجاً في الحياة الإنسانية يتطلع المؤمنون إليه كلما أرادوا العود إلى الحياة الحقيقية .

أذن للذين يقاتلون بسبب أنهم ظلموا ، ولو أنهم لم يظلموا ولم يفتنوا عن دينهم ولم يخرجوا من ديارهم لما كانت هنالـــك حاجة لقتال ، ولكنها سنة الله في خلقه ، ما وجد دعاة الحق في قطر من الأقطار أو عصر من الأعصار إلاصب عليهم العذاب والطرد والإيذاء والاستهزاء . وفي حديث عائشة عند البخاري قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لورقة بن نوفل : « أو مخرجي هم ؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي » .

وفي مدينة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه تربية ثانية يؤخذ بها المؤمنون ، تختلف عن التربية الأولى قليلا في مظهرها واتجاهها لا في روحها وحقيقتها .

كانت التربية الأولى ضبطاً للنفس وصبراً على الأذى وتبليغاً للدعوة وإعداداً للعدة مع حبس دواعي الانطلاق وكف حدة الإقدام ؛ أما التربية الثانية فهي تبنى على الأسس السابقة ثم تدفع المؤمنين دفعاً قوياً إلى الانطلاق في سبيل الله للضرب على أيدي اعداء الله بقوة لا تعرف الضعف وعزيمة لا تعرف الوهن .

كان طابع التربية في المدينة طابع الإقدام والموت في سبيل الله وبيع النفس ابتغاء مرضاة الله ، ليطمئن المؤمنون في ديارهم وليقضى على الشر والشرك والباطل والطواغيت ؛ وكل هذا يحتاج إلى سهر دائم وتحفز مستمر ودفع قوي ، وفي كل هذا يجب أن يكون لدى المؤمنين منعة في نفوسهم وقوة في أرواحهم تربأ بهم أن يخلدوا إلى الأرض أو يضعفوا أو يستكينوا .

كان أول ما قرع أسماعهم في المرحلة الثانية الاذن ، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » [1] .وقبل أن يؤذن لهم أعلموا في الآية نفسها تثبيتاً لقلوبهم بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وبعد أن أذن لهم بشروا بأن الله على نصرهم لقدير .

وبعد أن أذن لهم وبعد أن بشروا بنصر الله ذكرت لهم أسباب مقاتلة هؤلاء قيل لهم : إن تركتم هؤلاء الآثمين فستهدم بيوت الله التي يذكر فيها اسم الله « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم

---

(١) الحج : ٣٨ .

الله كثيراً »[1] ثم تعود الآيات الكريمة ثانية وثالثة فتطمئن المؤمنين وتقر في قلوبهم السكينة « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز »[2] .

والله تباركت أسماؤه خلق هذا الانسان وهو اعلم بما يهدىء روعه ويسكن فؤاده ويعده ـ جل شأنه ـ ويوثق موعده بأنه معه وبأنه ناصره ؛ كأنما يشير ذلك إلى أن ما ركب فيه من ضعف وهلع وجزع بحاجة شديدة إلى التثبيت والتأييد والعون الدائم والتطمين .

أذن للمؤمنين في المدينة بالقتال ثم أمروا به ثم نبهوا وهم في غمرة النداء ألا يعتدوا فليس الاذن بالقتال إذناً بالاعتداء ، أين هذا من مكر الأعداء الذين يزعمون أنهم تسنموا ذروة المدنية اليوم حين يعترفون ـ أنفسهم ـ بأنهم للوصول إلى أغراضهم من تسيير الشعوب كما يريدون واللعب بها كما يشاؤون،لا يبالون باللجوء إلى وسائل شريفة أو دنيئة .

أذن بالقتال ثم أمر به وفرض على المسلمين فرضاً كما فرضت الفرائض وشرعت الأركان ولكن الله الخبير بالنفوس يقول : (وهو كره لكم)[3] ويبين جل شأنه أن هذا المكروه هو خير :

(١،٢) الحج : ٤٠ .

(٣) البقرة : ٢١٦ .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[1] .

الجهاد بيع للنفس في سبيل الله . قال تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد »[2] . وهو وسيلة دخول الجنة ، بل لا بد للمؤمن من أن تمسه البأساء والضراء ، ولا بد من أن يزلزل زلزالاً شديداً في سبيل الله .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مَثَلُ الذين خَلَوْا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب»[3] .

وضرب الله للمؤمنين مثلاً في الأمم التي خلت ، خرج أناس وهم ألوف من ديارهم فارين من الموت فأدركهم الموت جميعاً في خروجهم وفي فرارهم ، ثم أحياهم جل شأنه ليروا معنى الحياة ويدركوا معنى الموت ويتبين لهم وللناس من بعدهم أن الموت ليس بذلك الشبح الذي يخافه المؤمن ويجزع للقياه .

---

(١) البقرة : ٢١٦ .

(٢) البقرة : ٢٠٧ .

(٣) البقرة : ٢١٤ .

« ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . فقال لهم الله : موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون »[1] وتلا هذه الآية ، الأمر بالقتال والأمر بالإنفاق : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم »[2] ، « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ... »[3].

أذن جل شأنه بالقتال ، ثم أمر به وفرضه على مؤمني المدينة ، ثم أمر بالإنفاق في سبيل الله ، وسمى تباركت أسماؤه ترك الإنفاق إلقاء باليد إلى التهلكة . قال تعالى :

« وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »[4] .

وهذا المفهوم أعني : تسمية ترك الإنفاق ، إلقاء باليد إلى التهلكة ؛ هو الذي تعطيه الآية الكريمة . وهو التفسير الذي ذهب إليه أبو أيوب الأنصاري صحابي رسول الله ، في حديث يرويه عنه أبو داود في سننه قال فيه : (إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام قلنا : هلمّ نقيم في أموالنا ونصلحها . فأنزل الله تعالى : « وانفقوا في سبيل

---

(١) البقرة : ٢٤٣ .

(٢) البقرة : ٢٤٤ .

(٣) البقرة : ٢٤٥ .

(٤) البقرة : ١٩٥ .

الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أن نقيم في أموالنا ونصلحها ، وندع الجهاد .) قال أبو عمران ـ وهو الراوي عن أبي أيوب ـ فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية . أخرجه الترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح .

كل هذه الآيات الكريمة التي ذكرناها في سورة البقرة . وقد جاء في الجزء الأخير من هذه السورة الكريمة دعوة حازمة إلى الإنفاق تتلو من بعض آياتها قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون »[1] . « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[2] . وكان محور السورة الكريمة الجهاد والإنفاق في سبيل الله .

وقد ابتدىء نزول السورة الكريمة في السنة الأولى من الهجرة تمهيداً للأيام المقبلة ، وكانت آيات الله تتنزل على المؤمنين ، فتبلغ قرارة نفوسهم ، وتستقر في أعماق أفئدتهم ، حتى إذا كانت السنة الثانية جنى المسلمون ثمرات تلك التربية ؛ وكان يوم الفرقان وكان النصر الأكبر في بدر .

---

(١) البقرة : ٢٥٤ .

(٢) البقرة : ٢٧٤ .

ولم تنته المهمة ههنا ولكنها بدئت ، بدئت يوم بدر وكان يوم الفرقان أول السبيل التي تشرف على فتح مشارق الأرض ومغاربها.
ولقد استقر الإيمان في قلوب المؤمنين بعد الموقعة ، ورأوا بأعينهم نصر الله وأيقنوا أن الله معهم ، وأن الملائكة تثبتهم وتؤيدهم .فماذا بعد هذا ؟ ليس بعد الإيمان بنصر الله إلا الإقدام ، وليس للمؤمنين بعد رؤية النصر أن يفروا من موقعة أو يخشوا عدواً ، وها هو حكم الله من علياء سمائه حازماً صارماً ينادي المسلمين ويحكم عليهم أبد الدهر بأن من يفر من الزحف فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . ولم يوضع الحكم بصيغة الأحكام ؛ ولكن صور الكافرين وهم زاحفون كموج البحر ، والمؤمنين يتقدمون إلى النصر وكلهم جرأة وثبات وإقدام ، وفي هذه الصورة التي تضع المشهد أمام أعين المؤمنين ، يأتي الأمر من عند الله بأنه من يولهم دبره في هذه الحال فقد باء بغضب من الله .

وإنه لحكم صارم وأمر شديد ، ولكن المؤمن يمتثل أمر الله ، ويسلم نفسه إلى الله ؛ وهنالك تتغير المقاييس ويصبح الصعب سهلاً ، والعسير يسيراً . وليس الفعل فعل المؤمنين ، ولكنه فعل الله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »[1] .

---

(١) الأنفال : ١٧ .

ولكن هنالك أناساً يسمعون وهم لا يسمعون وينظرون ولكنهم لا يبصرون ، والله جل ثناؤه يصف هؤلاء ويعيذنا أن نكون منهم فهم شر الدواب .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »(١) .

ولا يكفي في الأمر الطاعة فحسب أو دعوى الطاعة ، إن الطاعة الحقيقية لا بد أن تثمر تلبية واستجابة ، والاستجابة أبلغ من الإجابة ، فهي طاعة والتزام وامتثال وتعجيل بالتنفيذ ، وهذه الاستجابة فيها الحياة وفي تركها الموت . وهذا الحكم ينطبق على كل أمر يأمرنا به الله وكل دعاء يدعونا إليه .

والأمر هنا عدم الفرار من الزحف . وهذا هو النداء الثاني بعد الأول :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »(٢) .

ويجب أن يعلم المؤمن أن حق الله على عباده المؤمنين أن يطيعوه ، والعهد إليهم أن يمتثلوا أمره ، فإن لم يفعلوا فقد خانوا

---

(١) الأنفال : ٢٠ ـ ٢٢ .

(٢) الأنفال : ٢٤ .

الله ورسوله . فمجانبة أمر الله خيانة ، وأمره ههنا جهاد ، وموت في سبيله . فالجهاد في الآيات الكريمة محور الموضوع وعليه مدار الحديث وتركه خيانة الله ورسوله . قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »(١) . وثمرة الطاعة والاستجابة التقوى ، وثمرة التقوى نور في وجه المؤمن وفي سلوكه وفي قلبه وبصيرته ، نور يفرق به بين الحق والباطل ويفترق به عن غير أمثاله من المتقين، وهذا النور سماه الله تعالى فرقاناً . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم »(٢) .

وهكذا اتبع النداء الذي يحذر من الفرار يوم الزحف بأربعة نداءات متلاحقة تؤيده وتؤكده ، تدعو إلى الطاعة والاستجابة وعدم الخيانة والتقوى .

وفي السياق الكريم يؤمر المؤمنون ثانية بعد آيات أن يثبتوا عند لقاء الكافرين ثم يؤمرون أن يعدّوا العدة للقائهم ثم يؤمرون بأن يقاتل الواحد منهم عشرة من الأعداء ويخفف الحكم فيجعل للواحد اثنان .

---

(١) الأنفال : ٢٧ .

(٢) الأنفال : ٢٩ .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئــة فاثبتــوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »[1] .

وقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم،وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم »[2] .

وقال تعالى : « يا أيهــا النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكــم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين »[3] .

هذه الآيات الكريمة هي بعض ما تنزل في كتاب الله إثــر غــزوة بــدر .

ولما جاءت السنة الثالثة كان ثمرة هذه التربية ثبات المؤمنين حول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه بعد أن أصابهم القرح ، وبعد أن تصدع بناء جيش المسلمين في أحد ، وكانت تلك التربية كفيلة بلم الشعث وإعادة البناء . ولولا فضل الله وثبات رسوله

---

(١) الأنفال : ٤٥ .

(٢) الأنفال : ٦٠ .

(٣) الأنفال : ٦٥ ــ ٦٦ .

عليه صلوات الله وسلامه وثبات النفر اليسير حوله يبيعون أرواحهم في سبيل الله ، ويتساقطون عند قدمي رسول الله لما قامت للمؤمنين قائمة ، وتنزلت الآيات الكريمة بعد الموقعة هادية مرشدة تهيب بالمؤمنين ألا يهنوا ولا يحزنوا .

قال تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[1] . وفي السنة الرابعة طرد المؤمنون يهود بني النضير من المدينة ، ونزلت الآيات مفتتحة بنشيد قدسي ليس فيه ثناء على الظافرين وليس فيه إطراء للفاتحين ولكن الذي يستحق الثناء هو الله وحده :

« سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . فاعتبروا يا أولي الأبصار »[2] .

وفي السنة الخامسة للهجرة ، ظهرت ثمرات التربية كلها في موقعة الأحزاب . لقد اجتمع العرب جميعاً على المسلمين ورموهم عن قوس واحدة ، وما كان أحد ليصبر كصبرهم على الخوف

---

(١) آل عمران : ١٣٩ .

(٢) الحشر : ١ ـ ٢ .

والشدائد والجوع والبرد . كان ليلهم نهاراً وكانوا يبيتون في حراسة المدينة من المشركين ومن اليهود الغادرين . ولم تكن موقعة أشد على رسول الله ﷺ وأخوف على المسلمين من موقعة الأحزاب.

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »[1].

وبفضل الله تباركت أسماؤه كان النصر حليف المسلمين . قال تعالى : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان الله قوياً عزيزاً »[2] .

هذه خمس سنوات تنقضي في جهاد المؤمنين واستبسالهم ، وهزيمة الأحزاب هي الحد الفاصل بين عهدين أيضاً ، فلقد اعتدلت الكفة وتغيرت الوجهة ، وأصبح المسلمون يُرهبون ولا يَرهبون ويهاجِمون ولا يهاجَمون . قال عليه الصلاة والسلام حين رأى الأحزاب قد انكشفت : « اليوم نغزوهم ولا يغزوننا » .

وبعد سورة الأحزاب نزلت سورة الممتحنة ، وبعدها سورة النساء،وفي سورة النساء دعوة للمؤمنين لإنقاذ إخوانهم المستضعفين المعذبين في مكة .

---

(١) الأحزاب : ٩ ــ ١٠ .

(٢) الأحزاب : ٢٥ .

قال تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً »(١) .

وفي السنة السادسة بدئت خطة الإنقاذ ، وكان صلح الحديبية وكان فتحاً مبيناً وكان تمهيداً لدخول الناس في دين الله أفواجاً .

قال تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً »(٢) .

وفي السنة الثامنة توجه المسلمون من المدينة إلى مشارف الشام لغزو الروم .

وفي السنة الثامنة دخل محمد عليه الصلاة والسلام مكة مع عشرة آلاف من أصحابه خاشعاً لله مطأطئاً رأسه ، ليرى الذين أخرجوه وقاتلوه ونابذوه ، ويقول لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وفي السنة التاسعة يعاود الكرة عليه صلوات الله وسلامه في جيش عظيم يقوده بنفسه إلى بلاد الروم ، ويرسل في ذلك العام

---

(١) النساء : ٧٤ ــ ٧٥ .

(٢) الفتح : ١ ــ ٣ .

أبا بكر ليحج بالناس ويعقبه بعلي يتلو صدراً من سورة (براءة) ويخبر المشركين بأنه لا يدخل المسجد الحرام بعد اليوم مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله فعهده إلى أجله .. وتتم الغلبة للمسلمين ويعلي الله كلمته ويتبرأ الله من المشركين ، ويعطون مهلة مقدارها أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض كما يشاؤون . فإذا انتهت الأشهر الأربعة أخذ المشركون وحصروا وقتلوا ، وقعد المسلمون لهم كل مرصد .

قال تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ؛ فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم ، فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم »[1] .

---

(1) براءة : ١ ـ ٥ .

وهكذا ارتفع لواء الإسلام وأعلى الله منارته . وما كان الإسلام دين عبادة وصلاة وصيام وحج وزكاة فحسب ، ولكنه قبل هذه الفرائض وإلى جانب هذه الأركان ، كان حركة دائمة منظمة ترمي إلى جمع قوى الخير في الدنيا وتنظيمها لضرب قوى الشر ودفعها وتحطيمها .

وهذا المعنى فقده المسلمون بكل أسف وأضاعوه واستناموا واستكانوا ، وكفوا أيديهم ورضوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ وما هي بالصلاة التي أمر بها الله ، ولا بالزكاة التي يحبها الله ؛ وعدو الله رابض بالقرب منهم يراوغهم مراوغة الثعلب ويأخذ في كل يوم جزءاً من دينهم ويقتطع قطعة من عقيدتهم ويعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

٤ ـ ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة :

ذلك يبينه قوله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »[١] .

كل شيء في الكون لا يتم إلا بتدبيره جل شأنه وتقديره ، وفي كل ذلك تحاط الوقائع بحكمته ، ويتخللها منّه وكرمه ورحمته ، ومن سنة الله أن يرفع أقواماً ويضع آخرين ؛ وقد يكون

---

(١) آل عمران : ١٤٠ ـ ١٤١ .

أولئك الذين رفعهم وأعلى ألويتهم أنصار الباطل دعـاة الشر ، ولا يرفع الله ألوية هؤلاء لأنهم أثيرون لديه جل شأنه (والله لا يحب الظالمين) ، ولكن الموضوع أمر آخر هو أنه لا بد أن تنفذ سنن الله في مخلوقاته ، والآية التي سبقت هذه الآية هي قوله تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبـة المكذبين »[1] • فللأمم سنن وللمجتمعات قوانين وضعها الخالق البارىء جل شأنه • ومن أمثلة هذه السنن قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »[2] • والآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن المترفين هم الآلة المسخرة بيد القدرة الإلهية لتدمير قرية وإفناء أمة • والمترفون هم الذين يجمعون بين النعمة والرخاء والتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها وقد أبطرتهم النعمة وأطغتهم الشهوات ؛ ووسيلة هؤلاء الفسوق ، وهو الخروج عن طاعة الله جل شأنه •

والآية الكريمة « وتلك الأيام ••• » نزلت بعد غزوة أُحد وقد كان النصر فيها للمؤمنين • ولكن أسباباً وقعت حوّلت ميزان النصر وغيرت اتجاه الغلبة ، وأضاع المسلمون النصر وكان الأمر لهم ، فأصبح عليهم والأسباب التي أدت إلى ذلك جلية فيما أخبر

---

(١) آل عمران : ١٣٧ .

(٢) الإسراء : ١٦ .

به تعالى من أن الله صدق المؤمنين وعده فأخذوا بقتل المشركين وإخماد أنفسهم ••• ثم حدث أمر يوجز القرآن الكريم ذكره • قال تعالى : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيـا ومنكم من يريد الآخرة »[1] •

حين وقع الفشل ــ وهو الكسل والضعف والتراخي والجبن والتنازع والعصيان وإرادة الدنيـا ــ أضـاع النصر أصحاب رسول الله •

وهكذا ترشد الآيات الكريمة إلى أن لله سنناً اجتماعية تنطبق على المجتمعات الإسلامية وعلى غير المجتمعات الإسلامية ، وإن هنالك شروطاً إذا أضاعتها الجماعات المسلمة فقدت قيادتها وأسلمت القيادة إلى أعدائها •

ولكن الآية الكريمة ترشد إلى أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول ، وهو مندرج في سنن الله جل شأنه ونظامه الكوني وهو أن المحن والشدائد التي تصيب المسلمين ليست شراً كلها وحين يغلب المسلمون ويدال عليهم فليس معنى ذلك أن الأمة قد تودع منها •

إن للشدائد غرضاً هاماً جداً ، أن توقظ العيون النائمة ، وتؤجج الضمائر الهادئة ، وتثير إيمان ذوي الإيمان ، فتدفعهم إلى الوقوف أمام الباطل لمناجزته •

---

(١) آل عمران : ١٥٢ •

وهنا تقدم الضحايا ويتقدم الشهداء ويميز الله الخبيث من الطيب ، ويعلو صوت الإيمان وتشتد الأمور حتى يدرك الخطر الجموع . وحينما يضيق الخناق ويشعر الأفراد جميعاً بشدة وطأة الأعداء ، تنطلق الصيحات وتشرئب الأعناق ، لترى تباشير النصر وتطلع القلوب لتنظر آفاق الأمل ، وهنالك تتقدم طلائع الإيمان ، تستقبل الموت وتحمل في أعماق نفوسها الثقة والرجاء والأمل .

وهنالك في مثل هذه الشدائد ، يبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالاً شديداً ، وهنالك تمحص القلوب وتنقى الضمائر ويزداد آمنوا إيماناً .

« وتلك الأيام نداولها بين الناس » هذه الكلمات اليسيرة تنطوي على تقلبات الأيام وعاديات الزمان ، وتشير إلى التاريخ الطويل في حساب الناس حين تصل أمة إلى الذروة ، ثم تطرأ عليها الطوارىء ، وتعصف بها العواصف ، فتتغير القلوب على مر الزمن ، وتتبدل النفوس وتنحدر الأمة ثم تفيق من غفوتها ، فإذا هي مستذلة مغلوبة مقهورة .

فمداولة الأيام يقدرها الله جل شأنه لحكم يعلمها جل شأنه .

وقد أشاد تباركت أسماؤه بذكر صنفين من الناس يعلو شأنهم في أيام الشدائد وتسمو مكانتهم أولئك هم المؤمنون والشهداء . قال تعالى : « وليعلم الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » .

وإن الآية الكريمة لجديرة بأن تدفع المؤمنين دفعاً قوياً إلى إدراك مراميها والعمل بهديها إنها نداء للمؤمنين ليعلم الله إيمانهم، وللشهداء ليتقدموا إلى منازلهم .

الآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال التي يدال فيها على المؤمنين ويغلبون على أمرهم ؛ فلها أغراض كريمة في ثنايا هديها وإرشادها .

الغرض الأول : أن يعلم المؤمنون أن لله سنناً لاتتختلف ، فالعاملون المجدون يجنون ثمرات عملهم ، والخاسرون الفاشلون الذين لايعملون ، وينتظرون فرج الله ويرجون بزعمهم نصراً دون أن يبذلوا جهداً أو مالاً أو نفساً ؛ هؤلاء يكذبون على أنفسهم ويخادعونها ، ويتجاهلون أن نصر الله لا يكون إلا لمن ينصر الله .

والغرض الثاني : أن يعلم المؤمن أن الشدائد التي تصيب المؤمنين يريد الله جل شأنه بها تمحيص قلوب المؤمنين بتنقية الضمائر من الأغراض الدنيوية ، والمنافع الشخصية،وتطهير النفوس من أوشابها برجوعها بسبب الشدائد إلى ربها وإخلاصها لخالقها . وبعد ذلك كله يريد الله جل شأنه أن يتبارى المؤمنون ويتقدم المخلصون الذين ينطبق عليهم قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله »(١) . هؤلاء هم طلائع الخير ورواد الحق ووسيلة إنقاذ الأمة .

---

(١) البقرة : ٢٠٧ .

إن الشدائد تخرّج أبطالاً ، وتقدم رجالاً ينسون أنفسهم ومصالحهم ويدعون أغراضهم ويعملون في سبيل الله ، ويرضى عنهم الله جل شأنه ، ويرضى عنهم الناس ، ويعلي الله شأنهم ويكثر أتباعهم وينصر الله بهم ، كل هذه المعاني مندرجة في قوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء» وفي قوله : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

والغرض الثالث من هدي الآيات الكريمة : ألا يتسرب الوهن في الساعات الرهيبة الى قلوب المؤمنين ، ولا يغلب عليها الحزن ولا يجد اليأس إليها سبيلاً .

إن الوهن من صفات النفوس الضعيفة التي عدمت ثقتها بنفسها ، وضعفت صلتها بخالقها ، ولم يكن لديها ذلك الإدراك النافذ والنظر الثاقب والرأي الحصيف ، ولم يكن لديها ذلك الضمير النقي الخالص ، وتلك العزيمة الماضية ، تلك هي النفوس التي غلبت عليها شهواتها .

أما النفوس المؤمنة : فهي النفوس الواعية اليقظة ، المدركة النقية الخالصة ، التي تؤمن أن الأمور مهما عظمت فهي حقيرة بجانب عون الله ، وهذه النفوس هي التي غلب عليها إيمانها ، فلا تهن ولا تحزن وتؤمن أنها الغالبة المستعلية بإذن الله : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[1] .

---

(١) آل عمران : ١٣٩ .

لا يجوز للمؤمن أن يتسرب الوهن إلى قلبه . والسبيل لذلك أن يكون مع الفئة المؤمنة ، تلك الفئة التي ذكرها رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، ووصفها ليعلم الناس ما يجب أن يكونوا عليه في أيام الشدائد والخطوب . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » . والرواية الثانية في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » .

وكثير من المسلمين يظنون بأنفسهم خيراً ، ويحسبون أنهم من الطائفة التي ذكر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، ولكن المؤمن فطن يحسن محاسبة نفسه ، ولا تغره دعاويها ، وفي هذه الروايات الثلاث وصفت الطائفة بأنها تقاتل على الحق وبأنها غالبة .

وأقول : أفراد هذه الطائفة هم المؤمنون وهم الشهداء الذين ذكر الله تباركت أسماؤه ، وهؤلاء لا يهنون ولا يحزنون وهم الأعلون .

الغرض الرابع في هدي الآيات الكريمة : أن يعلم المؤمنون أن أيام الشدائد لابد فيها من تضحيات بالأموال والأنفس . قال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » [1] .

---

(١) آل عمران : ١٤٢ .

ويتصل بهذا ، أن يرى المؤمن الحياة رخيصة في سبيل الله ، وأن يصدق في عدم خوفه من الموت ، فإذا لدعى أنه لا يخاف الموت في ساعات الأمن ، فيجب أن يصدق قوله فعله في ساعات اللقاء . قال تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون »[1] .

ويؤكد عدم الخوف من الموت قوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزي الشاكرين »[2] .

الغرض الخامس في هدي الآيات الكريمة : في الساعات التي يدال فيها على المؤمنين ، إنه لا عذر للمؤمنين في قولهم : ليس لنا قيادة نقاتل تحت لوائها ، ولا نعرف جماعة نطمئن إلى الانضواء تحت رايتها ، لا عذر لهم في ذلك ، لأن أصحاب رسول الله حين قعد بعضهم وتركوا القتال في غزوة أحد ، حين نادى مناد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد مات ، عنّفوا على قعودهم وعوتبوا عتاباً شديداً . قال تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسول أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله

---

(١) آل عمران : ١٤٣ .

(٢) آل عمران : ١٤٥ .

الشاكرين »[1] . إنها تربية مثلى للنهوض بالأمور الكبيرة ولحمل التبعة ، يكلفها كل فرد من أفراد المسلمين ، وهو مؤمن في قرارة نفسه أن عليه أن يقوم بالمهمة مهما عظمت ولو كان وحده .

والغرض الأخير في هذه الآيات الكريمة : التأكيد على وجود الطليعة وأنصار الحق الذين يتقدمون ويستبقون إلى الخير ، وصفة هؤلاء أنهم ربيون غلبت عليهم النسبة لله جل شأنه لإيثار جانب الله عندهم على كل جانب سواء ، لا يهنون ولا يضعفون ولا يستكينون . قال تعالى : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم : إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين »[2] .

إن الأمة لا ينقذها في مثل هذه الأيام إلا طليعة تتصف بصفات المؤمنين والشهداء، تجمع شمل المؤمنين وتكون مع الصادقين ، تدعو إلى الله وتحتمل أنواع الأذى في سبيل ذلك .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

(٢) آل عمران : ١٤٦ ــ ١٤٨ .

قـلـة تنقـذ الموقـف

أ ـ بين الأمس واليوم :

طمس مكر الاعداء أيام الرسول الكريم وبـاء كيدهم بالإخفاق الذريع وكان ذلك شينهم في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، حتى إذا أدركت الخلافة الثانية العام الثالث عشر من الهجرة تمت محاولة آثمة انتزعت الفاروق رضي الله عنه من بين أصحابه وفتح باب الفتنة كما جاء في حديث يرويه مسلم عـن حذيفة . « قال حذيفة : فقال عمر : ليس هذا أريد إنما أريد التي تموج كموج البحر ـ يعني الفتن ـ قال حذيفة فقلت : ما لك ولهـا يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باباً مغلقاً . قال أفيكسر الباب أم يفتح ؟ قال قلت : لا بل يكسر . قال : ذلك أحرى ألا يغلق أبداً .

قال فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قـال : نعم كما يعلم أن دون غد الليلة ، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. قال فهبنا أن نسأل حذيفة من البـاب فقلنا لمسروق سله فسأله فقال عمر » .

وهكذا كان عمر حاجزاً يمسك الجماعة المسلمة أن تغشاها الفتن التي تموج كموج البحر .

وبدأ العدو غزوه المادي بمحاولة احتلال بلاد المسلمين وكان ذلك في الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر •

وارتد العدو بعد هذا الكفاح الطويل المرير على أعقابه خاسراً ولكن هذه الحروب الطويلة جعلت العدو يعرف نفسه ويكتشف ضعفه ويستمسك بوحدته جاعلاً محور نضاله عداءه للاسلام ، ولقد عرف في هذه الحروب الطويلة ما عند المسلمين وعاد الى بلاده ينقل عن المسلمين بذور التفتح والنهضة ، لقد أيقن بعد أن رأى ما عند المسلمين أنه ليس لبشر أن ينصب نفسه على الناس مشرعاً يحل لهم ما يشاء ويحرم عليهم ما يشاء ، وعزم الغرب منذ ذلك الحين على التخلص من سلطات الكنيسة كما عزم ألا يجعل لانسان على عقله سبيلا وبذلك أخذ يسترجع مكانته الانسانية •

ولقد بدأت النهضة الاوربية بعد اتصال الغرب بالشرق • جاء في كتاب « الحضارة الأوربية » لمؤلفين غربيين : (في خلال قرنين نقل الى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه •• واخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوربة الغربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر •

ولم يكن تسربها من أثر الغزوات الصليبية كما يسبق إلى الخاطر ـ هكذا يقول هؤلاء ـ ولكنه جاء من طريق صقلية إلى ايطاليا ومن اسبانيا المحمدية إلى اسبانيا المسيحية ثم إلى فرنسا ٠ وتسابق الرجال من ذوي العقول اليقظى إلى بلارمة وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية ، والعجيب أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من الانكليز ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة في اسبانيا ثم قضوا أعمارهم كلها في هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية ٠ وعلى هذا النحو كانت أوربة قد استولت في مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الاغريقي والعربي بحذافيره ٠ واصبح تدريس العلم في الجامعات الحديثة من الأمور المقررة المتفق عليها ٠٠٠) ٠

وكانت من بعد ذلك المخترعات الحديثة التي أخذت أصولها عن المسلمين ٠٠٠ وعاد هؤلاء لقتال المسلمين ثانية بأسلحة لا عهد للمسلمين بها ٠ يقول توينبي : « وهكذا في غضون فترة تقل عن القرن ، لم يقتصر الأمر على الإحداق بالعالم الإسلامي ولكن أمكن تطويقه تماماً ٠ ففي أواخر القرن السادس عشر واوائل السابع عشر وضع الطوق حول رقبة الفريسة ٠»(١)

وفي بداية منتصف القرن التاسع عشر تم للإنجليز الاستيلاء على الهند كما تم في السنة نفسها استيلاء الفرنسيين على الجزائر ،

---

(١) مختصر دراسة التاريخ لتوينبي ـ ج ٣ ـ ص ٣٦٠ ٠

ومن قبل هاتين احتلت هولندا في بداية القرن السابع عشر جـزر الهند الشرقية ــ أندونيسيا ــ .

ولكن العدو ما بلغ من احتلاله ما يريد من شفاء غيظه فلقد ظل المسلمون مسلمين على رغم الاحتلال بل لقد كانت رؤية العدو في البلاد الإسلامية تثير ثائرة المسلمين وتعيد معاني النخوة والنجدة إلى قلوبهم وكانت دافعاً قوياً إلى ظهـور البطـولات وتقديـم التضحيات .

لم يبلغ العدو ما يريد بل لقد كان وجوده في بلاد المسلمين يكبده جهوداً كبيرة وخسائر لا تطاق .

ولقد فطن العدو أن الأمر الهام ليس احتلال بلاد المسلمين ولكن الأكبر منه أهمية تغيير قلوب المسلمين وتضليل عقولهم ، وهنالك بدأت سياسة أخرى ... بدأت سياسة الجامعات والبعثات والاستشراق والتبشير بالنصرانية . يقول في هذا الشاعر الهندي أكبر إله أبادي لقد أخطأ فرعون في تقتيل الأبناء واستحياء النساء، ولو علم شيئاً من السياسة الحديثة لافتتح لهؤلاء الذين قتلهـم المدارس،وتوصل بذلك إلى ما يريدويسمى «ناشر العلم والفضيلة» .

لقد بلغ الضعف بالمسلمين وشدة النكاية بهم أن وصل الأعداء لا إلى الدس في صفوف المسلمين فحسب ، بل إلى محاولة تغيير عقولهم ونفوسهم أي أن العدو الخارجي انتهى إلى مس العامل الداخلي والتأثير فيه وذلك غاية ما يمكن أن يصل إليه العدو من

النكاية بعدوه . فأبناء المسلمين في كل الأقطار الإسلامية ينشؤون كما يريد أعداؤهم . وحين يوجد في المسلمين من ينذر بخطر أو ينبه إلى غائلة فمن الصعب أن يصل صوته وسط الضجيج والعجيج الذي تثيره منظمات العدو ومخططاته ، بل يخفت صوته قبل أن يرتفع ، أو يتلاشى بين الموجات المشوشة المفسدة .

واسجل ههنا للتاريخ وللعبرة بعض الصيحات التي اطلقها أصحابها باخلاص عميق ولكنها ذهبت ادراجاً :

في الثامن عشر من ذي القعدة ١٣٦٥ أي قبل ثلاثين عاماً قبل أن توجد إسرائيل كتب الاستاذ حسن البنا عليه رحمة الله كلمة نقتطف منها ما يلي :

قال رحمه الله : « لا ندري إلى متى يظل الساسة في مصر على جهل تام بالحقائق القريبة بل القريبة جداً . وما ندري إلى متى نظل مخدوعين بالتعاليم الاستعمارية التي شوهت الحقائق التي بين أيدينا وتعمدت إخفاء الكنوز الدفينة المنشورة في كل مكان من هذا الوطن الغني القوي العزيز » .

إلى أن يقول : « اكتب هذه بمناسبة ما ورد في بيان صدقي باشا على لسان أحد الساسة المصريين من التعبير عن سيناء المباركة بلفظ ــ برية سيناء ــ . ووصفها بعد ذلك بأنها أرض قاحلة ليس فيها ماء ولا نبات إلا أربعة بلاد جعلت للتموين وقت اللزوم » .

يقول : « وقد أثار هذا المعنى في نفسي سلسلة المحلولات التي قام بها المستعمرون منذ أن احتلوا هذه الأرض ليركزوا هذا المعنى الخاطىء في أدمغة السياسيين المصريين وفي أبنـاء سينـاء أنفسهم ، فأخذوا يقللون من قيمتها وأهميتها ويضعون لها نظاماً خاصاً في التعليم والتموين والحكم والإدارة ، ويحكمها إلى العام الماضي فقط محافظ انكليزي يعتبر نفسه مطلق التصرف في كل مقدراتها » •

إلى أن يقول : « مرت بنفسي هذه الخواطر جميعاً فأحببت أن أنبه الساسة الكبار والساسة الصغار وأبناء هذا الشعب إلى الخطر الداهم العظيم الذي تخفيه هذه الأفكار الخاطئة •••

••• إن سيناء المصرية تبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الأفدنة أي ضعفي مساحة الأرض المزروعة في مصر ، وقد كشفت البحوث الفنية في هذه المساحات الواسعة أنواعاً من المعادن والكنوز فوق ما يتصور الناس ، واكتشفت فيها بعض آبار البترول حديثاً ، ويذهب الخبراء في هـذا الفن إلى أنه يمكن أن يستنبط مـن سيناء من البترول أكثر مما يستنبط من آبـار العراق الغاليـة النفيسة • وأرض سيناء في غاية الخصوبة وهي عظيمة القابلية للزراعة وفي الإمكان استنباط المـاء منهـا بالطرق الإرتوازية وإنشاء بيارات يانعة على نحو بيارات فلسطين تنبت أجود الفواكه وأطيب الثمرات وقد تنبه اليهود إلى هـذا المعنى ووضعوه في

برنامجهم الإنشائي وهم يعملون على تحقيقه إذا سنحت لهم الفرص ، ولن تسنح بإذن الله » •

وبعد ستة أعوام من كلمة الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ أي في عام ١٩٥٢ م يطلق الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ صيحة ثانية نقتطف منها ما يلي :

« وفي هذا الوقت تقترب إسرائيل يوماً بعد يوم من حدود سيناء المصرية إسماً وإن كانت مصر لا تعرف عنها شيئاً ، لأن السياسة اليهودية ـ الإنجليزية عزلتها عن مصر طوال فترة الاحتلال • ولم يكن هذا العزل شيئاً عارضاً ولا أمراً غير مقصود ، وإنما كان وفقاً لسياسة بعيدة الغور تتفق مع اطماع اليهود العالمية •

إن شبه جزيرة سيناء تشتمل على أقدس مقدسات اليهود •• ويربى أبناؤهم على عقيدة أن جزيرة سيناء هي قلب مملكتهم الموعودة وعلى هذا الأساس هم يعملون منذ أجيال • وفي سنة ١٩٠٦ م وفدت على مصر لجنة إنكليزية يهودية قضت في سيناء خمس سنوات كاملة تفحص عن كل شيء فيها وتنقب عن المياه الجوفية والأراضي الصالحة للزراعة والمعادن والطبيعة الجيولوجية بصفة عامة والمناخ والطرق والأهمية الاستراتيجية وعادت ومعها تقرير شامل يثبت أن سيناء صالحة لاسكان مليون نفس وإعاشتهم» •

إلى أن يقول : « وفجأة •• وفي هذه الظروف تطلع علينا نعمة لا يدري مبعثها إلا الله ثم الراسخون في العلم من اليهود

والصليبيين ، نعمة تحديد النسل .. لماذا ؟ لأن مصر تضيق بسكانها ، ولأن موارد الرزق لا تنمو بنسبة نمو السكان ولأن الأرض الزراعية محدودة ...

... فهل استنفدت مصر وسائلها لزيادة مرافقها ؟ إن في مصر من الموارد والمرافق ما يكفي لإعاشة ضعفي سكانها كما يقول بعض الخبراء . وأمامنا مثل واحد في سيناء فهي كافية لإعاشة مليون من الناس ، لو وجدت من يعمرها ويرد إليها الحياة.

فلماذا يتجه التفكير أول ما يتجه إلى وقف نمو السكان ؟ » .

هذه الصيحات لم تفد المسلمين شيئاً لأن المسلمين في حالة طفولة اجتماعية . والطفولة لا تشعر بالخطر ، ولا تستطيع أن تكون بعيدة النظر . إن التربية التي يتلقاها المسلمون اليوم في المنازل والمدارس والمجتمع تؤدي إلى سطحية في التفكير وأنانية في الضمير وتردد في العزيمة .

ب ـ سبيل الإنقاذ :

وليس هنالك من سبيل إلا بناء الكيان الإيماني في قلوب المسلمين .

والمستوى الايماني لا بد له من مستوى فكري يعتنقه ومستوى وجداني يحتضنه : أعني أن الذي اختل ميزان تفكيره واضطربت القيم في وجدانه ، لا يمكن أن يكون مؤمناً صادقاً ، بل هو حين يرث الإيمان من أبويه يخل بشروط الإيمان ويتنزل به إلى مستواه المتدني .

وهكذا نجد كثيرين من المؤمنين يتنزلون بالإيمان إلى مستواهم الفكري والخلقي فيحسبون أن اداء العبادة يجزىء وإن اقترن بالغش والخيانة وإضاعة الحقوق .

وليس بأقل ظلماً من هؤلاء أولئك الذين يستمعون إلى صيحات الخطر وما يتنزل على المسلمين في كل بقعة ومكان من أذى وشر ، ثم يصمون آذانهم عن سماع كل ذلك .

إن الشروط الفكرية والخلقية هي التي تجعل صاحبها في مستوى يدرك فيه الحق إدراكاً يمتاز عن إدراك الناس جميعاً ، والمستوى الوجداني هو الذي يحمله على الإذعان لكلمة الحق والإقرار بها وإن تبع ذلك ما تبعه من سخط الناس وكراهيتهم ونقمتهم ، كذلك كان الصحب الكرام ، وكذلك كان سحرة فرعون حين قالوا لفرعون : « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض »[1] .

فإذا كان لا بد للمستوى الإيماني من مستوى فكري ومستوى وجداني فهل نربي التفكير والضمير أولا ثم نعرض الإيمان ؟ لم يفعل ذلك عليه الصلاة والسلام ، ولكنه عرض الإيمان قبل كل شيء ، لأن كلمة التوحيد هي كلمة الفطرة ولأن الفطر البريئة تتمثل الإيمان دون توطئة أو مقدمة . وهذا الإيمان وسيلة لدفع التفكير والوجدان ليبلغ أعلى المستويات .

---

(١) سورة طه ـ الآية ٧٢ .

عرض التوحيد عليه صلوات الله وسلامه على أصحابه فقبله أصحاب الفطر النقية طوعاً لا كرهاً وحملوا دعوته وصبروا على تحمل الأذى في سبيله وأمثال هؤلاء أبو بكر وعمار وبلال ومصعب وصهيب والسابقون الأولون .

وعجب أناس من المشركين وأخذتهم الدهشة والحيرة لصبر هؤلاء المؤمنين وصدقهم فكان ذلك تحدياً لعقولهم وإيقاظاً لقلوبهم، كانوا يحسبون المؤمنين كاذبين في دعواهم فلما رأوا صدقهم وصبرهم وصلابتهم في الحق ، ايقنوا أن الأمر جد ليس بالهزل ، لقد كانوا يشهدون كل صباح ومساء عذاب ياسر وعمار وبلال وصهيب . وهؤلاء المعذبون صامتون هادئون ماضون في احتمال الأذى واحتمال الدعوة التي حملوها . ما كانت تفعل هذه المشاهد في نفوس الشبان من قريش ؟ لقد صدم عمر — رضي الله عنه — بصدق أخته وقوة عزيمتها حين آمنت بالله فطلب الصحيفة من يدها في ساعة تفتح فيها وجدانه وتطلع فيها قلبه لمعرفة الحقيقة،فانكشف له الحق ورأى النور واعتنق الإسلام واستجيبت دعوة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه.وهكذا آمن الرعيل الثاني متأثرين بصبر صاحب الدعوة وأصحابه ثم صدم أبطال في الجاهلية لم يتعودوا الهزيمة صدموا بقوة أيقنوا أنها لا تغلب.من هؤلاء: خالد وعمرو ابن العاص ، وهؤلاء كانوا الرعيل الثالث ثم كان الرعيل الرابع أبو سفيان وصحبه حين رأوا قوة الإسلام قد جاوزت ما كانوا يقدرون .

وهكذا آمن هؤلاء جميعاً : آمن الفريق الأول منهم، لما كان يحمل من صفاء ونقاء أدرك به الحق سريعاً • وآمن الآخرون تبعاً لإخوانهم ولحاقاً بهم بعد صدمات أيقظت قلوبهم ونبهت ضمائرهم، ثم كان عاملاً قوياً في تمسكهم بالحق جميعاً وإدراكهم له وطلبهم إياه . وكان الإيمان عاملاً في نقلهم نقلة بعيدة جداً في مراتب الانسانية ، وبعد هؤلاء دخل الناس في دين الله أفواجاً •

الدعوة الإيمانية لا تنتظر مقدمة ولا تسبقها تربية ذات مراحل طويلة ، وإن كان مما يساعد على تقبلها عقل ذكي وقلب لوذعي وضمير نقي ، ولكنها تعرض على الناس في الحال فلا يخلو أن يوجد في الناس صفوة يتقبلونها تقبلاً تاماً ثم يتعاقب الناس في قبولها •

وهكذا كان سبيل الاصلاح اليوم وجود الرعيل الأول الذين يبايعون على القول بالحق أينما كانوا لا يخافون في الحق لومة لائم •

وإن المشكلة الكبرى التي نعانيها اليوم هي تصحيح إيمان المسلمين تصحيحاً يتناول الفكر والوجدان والسلوك والعمل وذلك قبل أي اصلاح آخر تأسياً برسول الله عليه صلوات الله وسلامه • إن كثيرين ينادون بأنواع من الإصلاح : تعليمي واقتصادي وصحي واجتماعي وما إلى ذلك ••• ولم يبدأ عليه صلوات الله وسلامه بشيء من ذلك ، ولكنه بدأ بالاصلاح الإيماني فكان كفيلاً بأن يتبعه كل إصلاح ، ولا نعني إيقاف هذه الأنواع

من الإصلاح ، ولكنا نعني أن يكون منطلقها ودعامتها والمهيمن عليها دعوة الإيمان •

وإذا لم يبن الإصلاح على إيمان صحيح فليس بمأمون العاقبة، وهذه المدنية الغربية خير مثال لذلك ، ولقد قطعت في سبق المجتمعات الأخرى أشواطاً بعيدة جداً في تربية أبنائها الفكرية والخلقية والاجتماعية والسلوكية ، حتى غدا أبناؤها أصدق من أبناء المسلمين وأخلص لمبادئهم وأصبر على الشدائد وأثبت على الدأب في العمل وأوفى بالوعد ••• ولا يفوتنا أن نقول إن كل هذا الذي ذكرنا من أخلاقهم إنما هو في حدود بلادهم ، فإذا خرجوا منها انقلب الصدق كذباً والوفاء غدراً والأمانة كيداً ومكراً وهذه فلسفتهم في الحياة ، فلسفة نفعية برغماتية تنادي بأن الحق والخلق يستمسك بهما ماكانا نافعين كافلين لمصالحهم •

ولقد اكتشف هؤلاء من أسرار هذا الكون ما اكتشفوا وعرفوا من سننه ما عرفوا ، وبذلك خضع لهم البر والبحر والسهل والجبل والأرض والفضاء وسيطروا على العالم سيطرة ما عرف التاريخ لها مثيلا ، وهم مع كل هذا يعترفون بأن ما عرفوه ليست إلا قطرة من بحار المعرفة الزاخرة ،وهم يقرون بأن حضارتهم هذه حضارة جهنمية لا تعرف رحمة ولا تمازجها انسانية •

وويل للعالم من تلك الساعة الرهيبة التي يتفجر فيها الحقد الإنساني ويصطلي الناس بنيران النفوس اللئيمة •

يقول الأستاذ أبو الاعلى المودودي :

(إنه قد سلط على الأمم الغربية شيطانان قويان ، يجرانها إلى ما فيه الهلاك . أولهما شيطان قطع النسل والآخر شيطان القومية ، فالشيطان الأول قد سيطر على أفرادها والآخر على أممها وحكوماتها . وأن الاول قد قلب عقول رجالها ونسائها فجعلهم يستأصلون أنسالهم بأيديهم .

وأما الشيطان الآخر فقد سلب أكابر ساستهم وقادة حربهم قوة التفكير السليم والتدبير الصحيح ، فهو يبعث فيهم نزعات الأثرة والمسابقة والتنافر والتعصب والحرص والطمع ، وبذلك يقسمهم ويفرقهم شيعاً متعادية متحاربة ، ليذيق بعضهم شدة بعض . وهذا أيضاً من صور النقمة الإلهية « أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » (١) ؛ فهو يهيؤهم لانتحار عظيم لا يرتكبونه على مهل ، بل سوف يساقون إليه في آن واحد .

وهذا الذي أقوله لا مبالغة فيه ، فإن الاستعدادات الحربية التي لا تزال تباشر الآن في أوربا وأميركا واليابان للحرب الآتية ترسل هزة الذعر والخوف في نفوس أولي الأبصار من تلك الأمم نفسها ، فهذا مستر سرجل نيومان الذي كان عضواً في الهيئة الجندية الأميركية سابقاً ، قد كتب مقالاً عن صورة الحرب الآتية ،

---

(١) سورة الأنعام ــ الآية ٦٥ .

يقول فيه : إن الحرب الآتية لن تقتصر على الجنود المتحاربين بل هي ستكون إفناء عاماً لا تنجو منه النسوة ولا الأولاد ، وذلك أن عقول العلماء الكيماويين قد نزعت وظيفة الحرب والقتال من الجنود الانسانيين وفوضتها إلى المركبات الكيميائية وآلات الحرب التي لا روح فيها ولا شعور ، والتي لا تميز بين محارب وغير محارب ، فالآن لا يتحارب الفريقان في الميادين أو في القلاع ، بل ستقع حربهما في المدن والقرى ، لأن قوة العدو الأصلية ــ حسب النظرية الجديدة ــ لا تكون في جنودها بل في بلادها المعمورة وأسواقها التجارية ومصانعها الصناعية [1] .

يعترف هؤلاء بكل هذا ويعترفون بأكثر منه ، وإن سبيل النجاة ، نجاة المسلمين خاصة والناس جميعاً العودة إلى بناء الكيان الإيماني .

الإيمان هو الرجولة هو الشمم والإباء والاستعلاء على الباطل والشر والفتنة ، وهو مقترن بالنفوس الكبيرة التي لا تعرف رياء ولا نفاقاً ولا مداراة للباطل ولا محاباة فيه .

وتربية الإيمان هي تربية القوة التي تهز الدنيا بأسرها وتهز قلوب الطغاة والجبابرة .

---

(١) ابو الأعلى المودودي ــ نحن والحضارة الغربية ــ ص ٦٦ ــ ٦٨ .

هذه القوة إنحياز إلى جانب الله جل شأنه ومنازلة لأعدائه وحمل للواء الحق ودفاع عن دعوته ، ومقارعة لأهل الباطل واستهانة بمكرهم .

وهذه القوة ثقة بالله واعتماد عليه ويقين بنصره وطمأنينة إلى حكمه وتوكل عليه ونداء له وحده .

وهذا الإيمان يهيمن على جنبات نفس هذا المؤمن ، فلا يكون له همّ ولا شاغل إلا هو .

وهذا المؤمن يعدل المئات من الرجال بل الألوف .

جـ ــ القلة المؤمنة :

ووجود هذا النوع من المؤمنين في أمة ، كفيل بسريان الروح الإيمانية إلى الجماعة كلها وتغيير وجهة الجماعة وإبدالها بضعفها قوة وبجبنها اقداما .

والامثلة كثيرة من ذلك : ما ذكره تباركت أسماؤه في سورة البقرة قال تعالى : « ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا . قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ! فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم . والله عليم بالظالمين »[1] .

---

(١) سورة البقرة ــ الآية ٢٤٦ .

تولت الأكثرية الغالبة ، وبقيت القلة المؤمنة ، وتمت التصفية الأولى واتقى المؤمنون واستبعد الظالمون • ثم كانت تجربة ثانية وضعها القائد ليختبر عزيمة أصحابه وصبرهم وقد ضاع كثيرون في هذه التجربة من القلة الذين بقوا ، ولم يفز في التصفية الثانية إلا قلة من القلة كانوا من الصبر والطاعة في المكان المناسب، وهؤلاء القلة حين لاقوا أعداءهم وكثرتهم قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده وهنالك انبرت قلة مؤمنة من هؤلاء فثبتت وهدأت النفوس : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » [1]• كان لهؤلاء موقفهم في الساعة الحرجة ولم يكن المعول على قوة حجتهم فحسب، ولكن كان المعول على صدق لهجتهم وإخلاص قلوبهم •

وهكذا كان الأمر في موقعة بدر حين قال فريق من المؤمنين : والله مالنا طاقة بقتال العدو فكان الذين يظنون أنهم ملاقو الله أبو بكر وعمر حين قالا فأحسنا ، ثم المقداد بن عمرو ، ثم سعد بن معاذ • وقد خلد التاريخ كل كلمة من كلماتهم • أما المقداد فقال:

(يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك • والله لا نقول لك كما قلت بنو اسرائيل لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون »[2] • ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما

---

(١) سورة البقرة ــ الآية ٢٤٩ •

(٢) سورة المائدة ــ الآية ٢٤ •

مقاتلون • فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنـا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه) •

وأما كلمة سعد فهي : (يا رسول الله آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله) •

وقد استبشر عليه الصلاة والسلام بعد كلمة سعد وقـال لأصحابه : سيروا وأبشروا ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم •

نفحت القلة المؤمنة الجماعة كلها بروح الايمان والاقدام فذهب الحذر وغشى المؤمنين غاشية من الامنة والطمأنينة وانقلبت روحهم المعنوية الى روح عالية قوية بالغة اقصى درجات القوة •

هذان مثالان لما تفعل القلة المؤمنة في نفوس الجماعة والأمثلة لا تحصى ، وإن مهمة النخبة المؤمنة هي إنقاذ جماعتها كلما عصفت بها العواصف واحاطت بها الكوارث •

وليس في المجتمعات الإسلامية اليوم أناس بلغوا هذه الدرجة من الإيمان ولكن المسلمين ينفحون بين آونة وأخرى بأفـراد يناضلون في سبيل الحق •

وقد جاء في صحيح مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » .

ولقد كثر الزيف حتى ادعى كثيرون ما ليس لهم وخدع كثير من أبناء الأمة بدعاة مزيفين وعز العثور على الدعاة الصادقين المؤمنين ، والتبس الأمر واختلط الحابل بالنابل وعمي أمر الرجال على كثيرين ، وعمر رضي الله عنه في عصره الزاهر يشكو ضعف معرفته بالرجال ويثني في ذلك على أبي بكر ويقول : رحم الله أبا بكر كان أعرف مني بالرجال .

والمؤمن يحرص على لقاء أفراد هذه الطائفة وإن قل عددهم ويحرص أن يكون معهم ويعد فيهم .

وسبيل الإصلاح ينطلق في رأينا من هذه الطائفة ، فإذا وجدت جماعة ثم نمت وترعرعت وكثر أفرادها وعز سلطانها ، كان لها الأثر الطيب في جميع المجالات ، وهؤلاء قد جمعوا إلى حصافة الرأي وبعد النظر معرفة بأحوال الناس وما يجري في المجتمعات إلى جانب إيمانهم العميق وصلتهم المتينة بالذي خلقهم .

إذا وجد هؤلاء وجب أن تكون منهم البطانة الصالحة التي تحيط بالمسؤولين ووجب أن يكونوا في كل مجال وفي كل موضوع يقيمون الحق ويلتزمون الجادة ، وأعظم مجالات الحياة أهمية التعليم والتوجيه ، وصفة هؤلاء أنهم ليس همهم الدنيا ويتوكلون على الله حقاً لا يهابون الموت ولا الشدائد في سبيل الله .

وصفة هؤلاء أيضاً أن اهتمامهم بمصاب الأمة أكبر من اهتمامهم بمصابهم ، بل هم ينسبون أنفسهم للرسالة التي نذروا أنفسهم لها ، ومن هؤلاء صلاح الدين عليه رحمة الله • كان كالوالهة الثكلى فقدت وحيدها يتقلب في فراشه فلا يجد النوم سبيلاً الى جفنيه ، وكان يشتد به المرض فيلزمه الفراش وكان مرضه مساوقاً لما يسمعه عن أخبار العدو فاذا حان وقت المعركة وكان في فراشه وقد ثقل عليه المرض أمر أن يشدوه إلى ظهر حصانه فاذا فعلوا اعتدل وعوفي ونسي العلة وقاد الجند ونزل المنازل الخطرة وسلك المسالك الوعرة وأنزل بالعدو الضربات القاصمة •

يقول الأستاذ عبد العزيز سيد مؤلف كتاب « ايام صلاح الدين » : (إنه لفارس ارتبط بمتن فرسه ولم يفارقه كمنزل متنقل أكثر من ربع قرن •

ولقد اعوج ساقاه من كثرة ركوبه فكان إذا مشى على الأرض عرج فلم يرد أن يراه الناس إلا راكبا ، كما لم يره الناس منذ انفتحت عليه أبصارهم قد خلع لباس الجندي إلا مرة واحدة في دمشق وكان ذلك وفاته بأيام •

هو بطل الفروسية الحقيقي ولم يخطىء الفرنجة حين فتنوا به فجعلته زوجة الملك في إحدى القصص الفرنسية مثال الرجولة الكاملة ، فأرادت من أجله الفرار من زوجها اليه) •

من للمسلمين من يحدب عليهم كحدب صلاح الدين •••

والمؤسف أن الأمة في مستوى المدرسين والداعين والموجهين تفتقد الشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر لهم ، ولأضرب مثلا بنفسي : لقد قضيت عمري بين قاعات المدرسة متعلماً ومعلماً ، وإني وايم الحق لأجد أيامي هزيلة ونفسي رخيصة لم ترتق عن مرحلة الطفولة ، ولم تبلغ درجة الرشد ولم تذق معاني الرجولة ولو طلب إلي أن اكتب تقريرا بشأن نفسي لقلت :

أ ــ انه ليس براض عن مستواه الإيماني ، ولا يرى أن مثل هذا المستوى يمكن أن يحدث تأثيراً واضحاً في طلابه .

ب ــ ليس براض عن عمله ولا يؤديه وهو واثق بأن السبيل التي يسلكها هي السبيل التي تؤدي إلى نجاة الأمة ، فلا المناهج ولا الطرائق ولا النظم التي يتخرج بها الطلاب بالتي تخرج للأمة رجالا أبطالا ، دعاة ، ولذا فهو يعتبر نفسه أجيرا يعمل ما يرضي صاحب العمل في سبيل العيش ، وربما يعجب كثيرون من هذا القول .

وعلى سبيل المثال نذكر ناحية واحدة من نواحي الضعف في التعليم ــ وهي كثيرة ــ : إن مجال التعلم قد فقد مثاليته فقداناً تاماً ، ذلك لأن التعليم والتعلم ليسا اليوم إلا وسيلة لكسب العيش ، وهذا المعنى أكبر ما أصيب به العلم في الأيام الاخيرة ولا سيما في البلاد الإسلامية . ولقد فطن الغربيون لذلك وكتبوا فيه كتباً كثيرة وجدّوا في إيجاد الوسائل لإيجاد طبقة من المتعلمين

تجعل هدفها من العلم العلم نفسه ، وقد نجح هؤلاء إلى مدى بعيد في إيجاد طلاب يغرمون بالعلم لذاته وفي ظني أن هؤلاء ما أغرموا بالعلم لذاته ، ذلك أنهم أناس لا يؤمنون بالله أو يؤمنون به إيماناً ملتوياً منحرفاً ، وهم إنما أغرموا بالعلم ليكون وسيلة يدركون بها العظمة ، فهم يرضون دافع الاستعلاء في نفوسهم عن طريق ظهورهم في العلم • أما المسلمون فقد أصبح طلب العلم عندهم لغير الله فلم يكن له ذلك النور في القلوب ، ولم يكن المتعلم ليبالي بعد الحصول على الشهادة بالوقوف عند درجة ربما عادت به الى الجهل ، أو نزلت به عن الدرجة التي انتهى اليها ولا يبالي المتعلم بأنه أدى حق العلم أو لم يؤده •

ومن أجل ذلك ولأسباب أخرى لا تنتج التربية الحديثة في بلاد المسلمين أفذاذاً في العلم ولا رجالاً في الدعوة • ! إلا القليل

جـ ــ ولذا يتطلع كاتب هذه السطور بشوق كبير فيما يدعي ، إلى العمل خارج المعاهد الرسمية إلى العمل في المسجد فإنه أحرى به أن يؤدي إلى الثمرة المطلوبة ، وليس المراد دعوة السذج إلى المساجد ولكن المراد دعوة الجامعيين إليه • هذا جزء يسير من تقرير يكتبه مدرس عن نفسه ، وكيف ينتظر من عامل أن يؤدي عمله إلى أطيب النتائج وهو لا يؤمن بأن عمله يقوم على أقوم وأحسن منهاج •

فالسبيل لنجاة الأمة أن توجد الطائفة التي ذكرها عليه صلوات الله وسلامه في قوله : « ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » .

فهل من سبيل لوجود هذه الطائفة وظهورها واجتماعها ونموها وغلبتها ؟

والجواب : إن مجال العمل مفتوح وأبوابه واسعة جداً ولا يحتاج الأمر إلا إلى لفتة بسيطة يلتفتها القادرون والمصلحون .

لقد ألفت بعض البلاد الغربية أن يكون لديها مدارس خاصة لتخريج رجال القيادة . وهنالك مدارس ينشئها بعض رجالات الفكر يتبعون فيها منهاجاً خاصاً بعيداً عن المناهج التي ألفتها المدارس العادية ، يريدون من هذه المدارس تحقيق معان وإثبات نظريات وبيان ما تعانيه المدارس العامة من نقص وإخفاق .

وهنالك من أصحاب المال والثراء رجال يتطوعون بمبالغ كبيرة من المال لإنشاء معاهد على الوجه الذي يرغبون فيه ، والغالب في أمر هؤلاء أن يضعوا ثقتهم في عالم له شأنه ومكانته وإخلاصه حيث يضع خطة المدرسة ويشرف عليها .

ويكون لهذه المدارس الأثر الكبير في حياة الأمة ، وأريد أن أخلص من وراء هذا إلى حقيقتين :

أولاهما : المدارس والجامعات والمعاهد ، هي مكان قيادة الامة الى الخير أو إلى غير ذلك لا سمح الله .

الثانية : التربية هي وسيلة الإصلاح وليس هنالك وسيلة غيرها ، ولكن الوسائل تختلف ، فمنها الناجحة ومنها المخفقة وكذلك التربية .

ولا نستطيع أن نقول : إن معاهدنا العلمية قد نجحت في تخريج دعاة للأمة جمعت الشروط المطلوبة ، فهل يمكن أن نعيد النظر والفكر والتأمل في الموضوع نفسه ؟ لقد فكر رشيد رضا عليه رحمة الله أن ينشىء معهداً للدعاة ، وفكر الأستاذ حسن البنا أن ينشىء معهداً للدعاة . فهل يمكن أن يفكر أحد في إنشاء معهد للدعاة ؟ وليست الصعوبة في الإنشاء ، ولكن الصعوبة في الإنشاء على طراز معين .

إن كثيراً من الناس يقولون: إن المدارس موجودة ومعاهد الدعاة موجودة ، فما فائدة مثل هذا الكلام ! وأقول : لو أن الحكومة أنشأت مصنعاً لصنع السلاح أو الطائرات ، وأتت بالخبراء الماهرين والصناع الحاذقين ، وتم إنشاء المعمل وقدم إنتاجه فإذا هو إنتاج ضعيف لا يؤدي الغرض المطلوب ولا يوازي ما تنتجه المصانع العالمية ، ماذا يكون العمل في مثل هذه الحال ؟ الجواب ، الشك في خبرة الخبراء والطعن في مهارة الصناع ، والبحث في جهة من جهات العالم عن خبراء آخرين نستوثق من خبرتهم وندقق البحث والنظر في درايتهم ، ونحاول محاولة ثانية إذا كنا جادين .

ولعل المشكلة في أن مصنع الطائرات يمكن الحكم عليه بسهولة في نجاحه أو إخفاقه ، فإذا ارتفعت الطائرة وقطعت أجواء الفضاء بالسرعة المطلوبة واستطاعت أن تستمر في مهمتها دون خلل ، كان الحكم عليها بأنها صالحة وإن كان ههنا أيضا دقائق تخفى إلا على العالمين • اما مصنع الدعاة فقد يكون الحكم عليه في منتهى الصعوبة وقد يكون إصلاحه أشد صعوبة ولا تظهر نتائج الإخفاق إلا بعد حين من الزمن ، فالأطفال الذين ينشؤون في معاهد البعثات التبشيرية يحملون السموم والجراثيم الفتاكة في طيات نفوسهم ولا ينفثونها إلا حين يتسلمون مقاليد الأمة ، كل ما في الأمر أن نتائج إخفاق المعاهد العلمية تؤدي بعد حين إلى تردى الأمة باجمعها وتدهورها • وإن التغيرات العنيفة التي تمر بهـا البلاد الإسلامية في كل الاقطار ترجع اسسها إلى المعاهد العلمية ، وإن الدعوات الجديدة التي تعادي مبادىء الأمة ومثلها تحاول أن ترتع وتجد لها أعشاشاً ومكامن في دور العلم •

إن المعهد صورة للمجتمع ولكن المعهد يسمو عن المجتمع ويحاول أن يحقق الصورة المثالية التي يطمع إليها أفراد المجتمع ، فإذا استطاع المعهد أن يحقق ذلك استطاع أن ينقل النواة الصالحة لتلقى في أرض المجتمع فتنبت الشجرة الطيبة والثمار الكريمة •

وأول ما يعانيه مجتمعنا الفرقة بين أفراده والتمزق في بنيته ، أما المجتمع الاسلامي الحقيقي : فهو بناء عضوي متآزر متكامل ،

شبهه عليه الصلاة والسلام بالجسد مرة والبنيان مرة أخرى • فهو مجتمع قائم على التآخي والتواد والتساوي وتخصص كل في عمله ، والفرد خلية في الجسم تمد الجماعة بكل ما تستطيع وتستمد منها كل قوة ، إنه مجتمع قائم على الإيثار والتضحية وليس قائما على المنازعة الانانية ، وليس من السهل أن يرقى الفرد عن مستوى التنازع الأناني إلى مستوى الإيثار إلا إذا وجد لديه الحافز الذي يدفع إلى ذلك وهو حافز الإيمان •

والشرط الأول لمعهد الدعاة الذي يراد منه إصلاح المجتمع أن يشبه أفراده أفراد الجماعات الأولى •

ولا يتم هذا إلا باختيار موجهين صالحين صادقين من العالم الاسلامي كله يدعون إلى الإيمان ويحسنون تربيته في القلوب ، وتكون ساعات العبادة لديهم ليست بأقل أهمية من ساعات العلم، وساعات الدعوة ليست بأقل أهمية من ساعات العبادة •

ويكون هذا المعهد أسرة ينقطع أفرادها للدعوة ويتبتلون لحمل الرسالة ويقضون فيه ليلهم ونهارهم • يقومون في الليل حيث تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويجتهدون في النهار في العلم النافع والدعوة ويتعلمون البذل والجهاد والأخوة والعمل •

يأخذ هؤلاء الطلاب بأسباب التقوى ووسائل الخشية ، وينذرون أنفسهم لحمل دعوة الإسلام وتبليغ رسالته ، ويخشون الله ولا يخشون أحداً من خلقه ، ولا يفوتهم تزويد أنفسهم

بالوسائل العلمية جميعها فهناك دراسات نفسية واجتماعية وتربوية لا بد للداعي من الإلمام بها ، وهنالك وسائل للبلوغ إلى النفوس ودعوتها بالحكمة والموعظة الحسنة لابد من إحكامها ، وهنالك دراسة ما يجري في العالم وفي المجتمعات وما يصطرع به العالم من تيـارات واتجاهات ، وهنالك التاريـخ الإسلامي والحركات الإسلامية .

وأكبر من هذا كله الإيمان الذي يهيمن على القلوب فيؤلف بينها ويجمعها على الخير .

ويمكن تلخيص أسس هذا المعهد بالعبادة أولاً والعلم ثانياً والدعوة ثالثاً .

وبعد ، فهذه وسيلة من وسائل الإنقاذ ، وليست هي سبيل الإنقاذ الوحيدة ، وقد وصفت هذه الوسيلة بمواصفات لايدعى لها الكمال ولا الاستقصاء ، والله نسأل أن يلهمنا رشدنا ويهدينا إلى سواء السبيل.

خاتمة

وبعد فصراعنا اليوم مع الباطل صراع نكد لئيم فقد بلغ دعاة الباطل من القوة ما لم يبلغوا في يوم من الأيام ، وعرفوا من الوسائل ما تشيب له النواصي ، والحق باهت داكن أضاعه أهله بين الناس وأضاعوه في نفوسهم .

إن المسلمين يمتلكون الحق ولكنهم يعدمون كل وسيلة للحفاظ عليه أو الدفاع عنه حتى في أنفسهم وأبنائهم،فكيف يبلغونه الناس ؟! ولذا شحب مظهر هذا الحق الذي بأيديهم وأربد لونه وغدا حقهم شبيهاً بالباطل في أعين الناس ، وأعداء المسلمين يمتلكون كل وسيلة ويفقدون الغاية ، وينظر الناس إليهم فيفتتنون بهم ويحسبون باطلهم شبيهاً بالحق .

ومن رحمة الله بعباده أن يقيض أناساً يجري الله كلمات الحق على ألسنتهم وإن كانوا في معسكر الباطل وينتصرون للحق وهم في دعامات بناء الشر ، وهؤلاء من أكابر مفكري الغرب وأساطين حضارته يصيحون بهذا العالم الذي ينحدر إلى هاويته ويهوي إلى مصرعه وإن صيحاتهم هذه نذر لعلها تلفت العالم الغربي العاتي إلى تغيير طريقة سيره ، فإن لم يكن ذلك فلعلها تكون سبباً لدعوة

العالم الإسلامي المتخلف أن يفيق من غفوته ويعرف سر الكنز الذي هو في حوزته •

وفي شأن الحضارة الغربية وما تعانيـه من أزمات نفسية اجتماعية ، أشير إلى بعض الكتاب الغربيين العالميين من أمثال كاريل ، اشبنجلر ، توينبي ، رسل ، لاسكي ، برجسن ، لوبون •• وما أذكر من هؤلاء إلا أمثلة يسيرة لعدد وفير ، واقتطف مما كتب هؤلاء نماذج قليلة جداً للوصول إلى غاية هامة •

يعتبر توينبي (نقلا عن كتـاب الدين في موقف الدفاع للأستاذ فتحي عثمان ص ٦١) : ظاهرة تقديس الدولة الإقليمية إلى حد العبادة نذير شر رهيب للغرب من ناحيتين :

١ ـ إن هذا التعلق الوثني بالدولة الإقليمية : هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى لسكان العالم المصطبغ بالصبغة الغربيـة •

٢ ـ إن هـذه العقيدة الباطلة هي السبب في انقضاء أجل مالايقل عن (١٤) حضارة أو (١٦) حضارة من الحضارات الواحدة والعشرين •

وما برحت الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه ويشتد فيها استعمال العنف ـ وهي نتيجة التعلق بالدولة الإقليمية ـ هي إلى أبعد حد أكثر عوامل الفناء شيوعاً •

يؤكد توينبي على فكرة عبادة الغربيين للدولة التي ينتمون إليهـا في كل ما يكتب ، ويرى أن هذه العبـادة هي نذير دمار

البشرية ، والحق أن فكرة ألمانيا فوق الجميع هي في قرارة نفس كل أميركي وكل روسي وكل إنكليزي وكل فرنسي وإيطالي وكل غربي ، كل بالنسبة إلى بلده .

يصرح توينبي أن أزمة المجتمع الغربي روحانية وليست مادية ، إذ على الرغم من بلوغ هذا المجتمع الذروة في تقدمه المادي ، ما برح يحس بجوع روحي شديد .

يقول: « وإذا كانت النفوس الغربية قد استبد بها قلق الفراغ الروحي فألزمها فتح الباب لشياطين مثل القومية والفاشية والشيوعية فإلى متى تتحمل العيش بدون عقيدة دينية ؟! » .

ويقول : « إن التائهين في بيداء المجتمع الغربي قد انحرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذي آمن به أجدادهم ، أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدول الإقليمية ــ كالكنائس الطائفية ــ أوثان تجلب عبادتها الحرب لا السلام ، وهذا ما يجعل التائهين يندفعون صوب التعلق بهدف بديل هو النظم السياسية الشاذة » .

ويقول : « لقد أصبح للدين المكانة الأولى في تصوري للتاريخ العالمي ، وليس هذا الدين هو الدين المسيحي الذي نشئت عليه ، بل أصبحت أرى أن ديانات الهند سوف يكون لها أثرها في المكانة التي أتصورها للدين في المستقبل » .

أقول : وهذه الكلمة تصور تعطش هؤلاء إلى معنى إيماني يملأ خلاء قلوبهم على تخبطهم في الفهم وعدم تمييزهم بين

الغث والسمين وحقد دفين يملأ قلوبهم ، مع قعود المسلمين عن بيان وضوح الحق في دينهم وعدم بذلهم الجهود لتحقيق قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » (1) .

ويقول هارولد لاسكي وهو مفكر بريطاني اشتراكي :

« إن عالم اليوم يعاني من الشعور العميق بخيبة الأمل ، وقد انتشر هذا الشعور في أماكن كثيرة ، ويبدو أن جيلنا قد فقد قيمته ، لقد حل الشك السافر محل اليقين وحل اليأس محل الأمل .

وقد سددت الضربة القاضية إلى المعتقدات الدينية التي كانت مقياساً دائماً للسلوك ، وأصبحت الكنائس وسيلة للقيام بطقوس شكلية بدلاً من التأثير على معتقدات الناس ....

إن في مقدور هذا العلم ان يتيح الرفاهية المادية ، ولكن يبدو أنه عاجز عن اكتشاف مبادىء الرضا الروحي ، وعلى الشرق العريق في الوقت الحالي أن يتحدى هؤلاء الذين يسعون إلى الاحتفاظ بظروف الوصاية ... » .

أقول : إنه ينادي الشرق العريق ، وهو يقصد سكان الأراضي الطيبة المقدسة التي كانت مهد الأديان ومنطلق الهداية الإلهية يهيب بهؤلاء أن يتحدوا الغرب الذي يريد الاحتفاظ بوصايته على العالم .

---

(1) سورة الفتح ــ الآية ٢٨ .

إلى أن يقول :

« وانطلقت الأرواح الهائمة تعربد في الواقعية والسريالية وما إليهما ... ولكن هذا الخبط هنا وهناك لم يطمس حكمة تولستوي للهادية حين يقول : الأديان تقدم أسمى ما يمكن أن يصل إليه الانسان من فهم للحياة في أي عصر من العصور وفي أي مجتمع من المجتمعات . » .

ويقول غوستاف لوبون :

« دلنا التاريخ على أن أهم الحضارات قامت على المعتقدات الدينية ، وأنها توجت حياة الملايين من الرجال بما لا تقدر على فعله أية فلسفة من زهد وإخلاص وإنكار الذات ومحبة الآخرين ..

إن الثورات الدينية يمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد قوته المادية كثيراً ، وقد شوهد ذلك عندما حول محمد بما جاء به قبائل العرب الضعيفة إلى أمة عزيزة .

ولا يقتصر المعتقد الديني الجديد على جعل الأمة متجانسة ، بل يأتي بما يتعذر على أي فيلسوف أو قانون أن يأتي بمثله ، إنه يغير عواطف الأمة الثابتة ....

والواقع إن الطاقة الدينيـــة تظهر ثمارها في الجماعات كما تظهر في حياة الأفراد . فالدين يؤدي وظيفة هامة جداً في تغيير بنية المجتمع » .

هؤلاء جميعاً ليسوا من دعاة الأديان ، ولكنهم جميعاً يتطلعون

إلى الحقيقة . والحق أن العالم يتطلع اليوم إلى أفق بعيد ، يرنو إلى النجاة ، يحس بجوع مؤلم وتعطش شديد إلى معاني الإيمان .

إن المشكلة في نظري ترجع إلى مسألة وحيدة ، هي خلو العالم الإسلامي من دعاة على مستوى العصر ، يجمعون إلى خشية الله والإخلاص له والتفاني في سبيله العلم الصحيح والوسائل القويمة والسبل الحكيمة مع عزائم ماضية دائبة لا تعرف السآمة ولا يتطرق إليها وهن ولا كلل ولا ملل .

دعاة يدعون (إلى الله) العامة والخاصة في المتاجر والأسواق والمساجد والمدارس . والمدارس والمساجد لها الصدارة في الأهمية والاهتمام ، يدعون الحكام والمسؤولين في أقضيتهم وتشريعاتهم ، يدعون المسلمين ويدعون غير المسلمين من الناس كافة .

وإن التربية على مستوى الجيل الماضي وتفكير العصور الماضية شيء انقضى عهده ، ولكل عصر وسائله وأساليبه ، فلا بد من مستوى يوازي مستوى اليوم ووسائل تضارع أساليب القوم، وإننا إذ كنا لا نستطيع الغلبة المادية على أعدائنا اليوم إلا باستعمال وسائلهم أنفسهم ، فالحال كذلك في الغلبة المعنوية شبراً بشبر وذراعاً بذراع إلى جانب ما ذكرت من هيمنة الإيمان والنهل من مصادر الإسلام والتحلي بأوصاف مرتبة الاحسان .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

* * *

المحتــوى